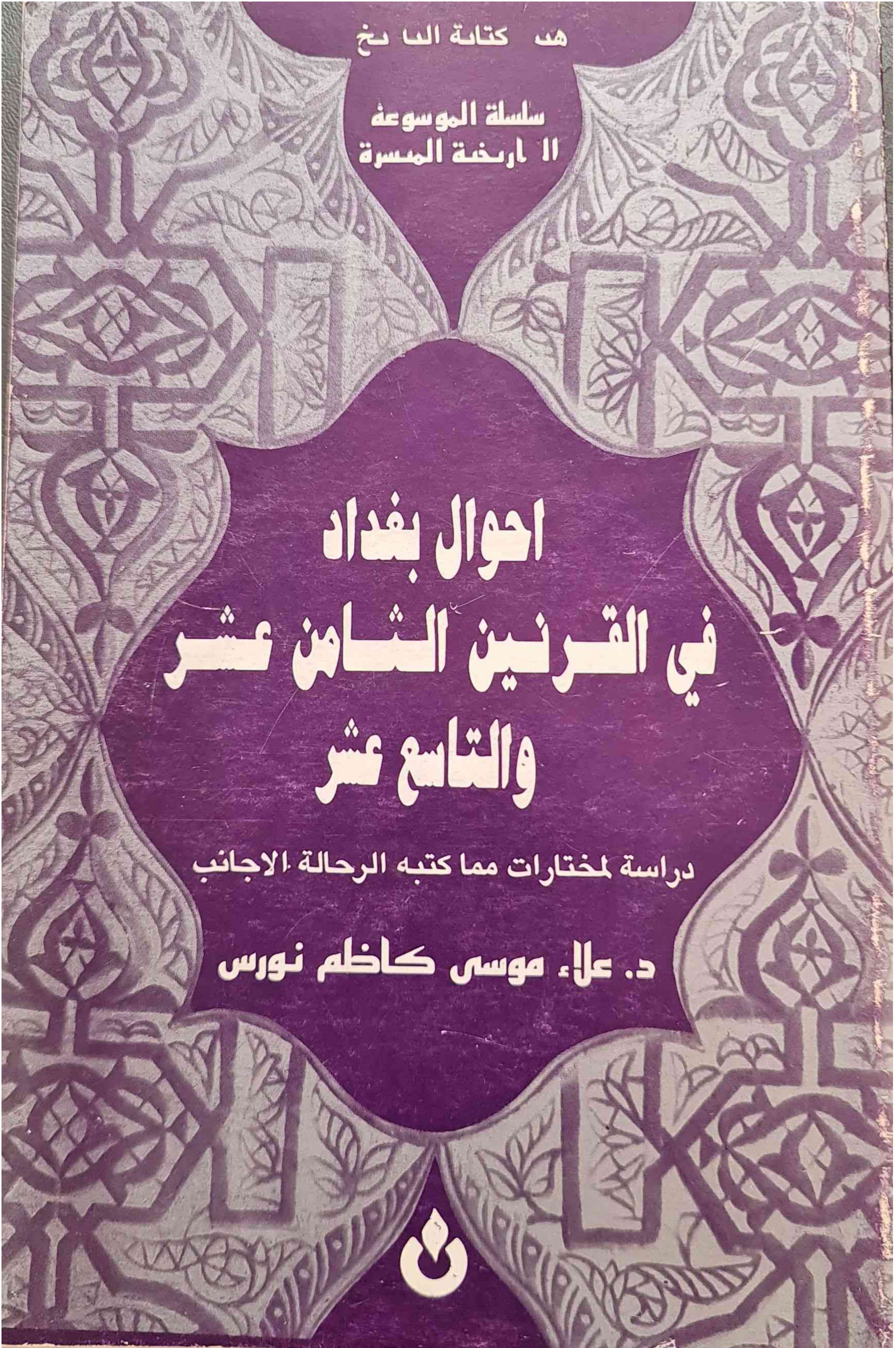

هد كتابة الدا بخ
سلسلة الموسوعة
اا اريخية الميسرة
احوال بغداد
في القرنين الثامن عشر
والتاسع عشر
دراسة لمختارات مما كتبه الرحالة الاجانب
د. علاء موسى كاظم نورس

وزارة الثقافة والاعلام

دار الشؤون الثقافية العامة

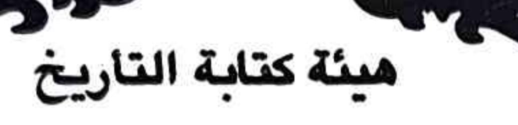
بغداد ١٩٩٠



طباعة ونشر
دار الشؤون الثقافية العامة «آفاق عربية»

رئيس مجلس الادارة :
الدكتور محسن جاسم الموسوي

تعنون جميع المراسلات
باسم السيد رئيس مجلس الادارة
العنوان :
العراق - بغداد - اعظمية
ص . ب . ٤٠٣٢ - تلكس ٢١٤١٣ - هاتف ٤٤٣٦٠٤٤



هيئة كتابة التأريخ

سلسلة الموسوعة التاريخية الميسرة

أحوال بغداد

في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر
دراسة لمختارات مما كتبه الرحالة الاجانب

الدكتور علاء موسى كاظم نورس

كلية الاداب ـ جامعة بغداد

بغـــداد ١٩٨٩

الطبعة الاولى ـ لسنة ١٩٩٠

المقدمة

ان لكتب الرحلات ، اهمية خاصة ، فهي تقدم وصفاً لكثير من جوانب الحياة ، مما يوفر ثروة تأريخية غير يسيرة لها قيمتها في توضيح الاحداث واستقرائها .

ولقد زار بغداد في العهد العثماني العديد من الرحالة الاجانب الذين دونوا في مذكراتهم ويومياتهم ما وقع تحت اعينهم وما لفت انظارهم وما اثار انطباعاتهم على ما فيها من تحيز وتحامل في بعض الاحيان .

ان الغايات التي كان معظم الرحالة الاجانب ، يقصدون العراق من أجلها ، تنحصر على وجه الخصوص بتزويد حكوماتهم بمعلومات ذات أهمية سياسية واقتصادية وعسكرية ، متخذين من السياحة والتجارة والتنقيب ستاراً لهم ، فضلاً عن ان قسماً منهم ، جاء اصلاً من أجل هذه المهمة بصفة التمثيل السياسي والانتداب لاغراض تجارية او فنية او عسكرية .

وكما حاول بعض المستشرقين ، تقديم رؤى عن جوانب عديدة من تاريخنا تتسم بالكثير من التشويه والتضليل ، فان في بعض كتب الرحلات تحيزاً وتحاملاً كما اشرنا ، الامر الذي يستلزم الوقوف عندها بالدراسة والتحليل والمقارنة ، لانها ذات اهمية غير اعتيادية عند تناول تاريخنا الحديث .

ان اتساع المصالح الاجنبية المتنافسة والمتضاربة في الوطن العربي منذ مطالع القرن السادس عشر ، قد رافقته حركة ناشطة

في ميادين التجارة والسياحة والدبلوماسية ، مما اتهاح للاوربيين وغيرهم ممن أسهموا اسهاماً فاعلاً في تلك الانشطة فرصاً عديدة للتأليف في موضوعات شتى تتعلق بحياتنا وتاريخنا .

ويورد ستيفن هيمسلي لونكريك في كتابه « أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث » ، ضمن قائمة مراجعه عن العراق للمدة ما بين ١٥٥٣ و١٩١٤ ، اسماء ثمان وتسعين رحلة وتقرير ومقالة مسهبة ، وكلها تصف العراق واوجه الحياة فيه بطريقة او اخرى ، اما اصحاب هذه الرحلات فهم بين برتغالي وفرنسي ، وهولندي والماني ، وايطالي ، وانكليزي وامريكي ، وارمني ، وهندي وايراني وتركي ، غير ان القسم الكبير منهم من الانكليز[١] .

ومعروف ان المصالح الاستعمارية ، قد رفعت من اهمية العراق منذ القرن الثامن عشر ، وبخاصة في نصفه الثاني ، عندما نشبت حرب السنوات السبع (١٧٥٦ ـ ١٧٦٣) ، اذ استخدمت بريطانيا طريق العراق الى الهند خلال هذه الحرب ، ورفعت تمثيلها في البصرة الى درجة قنصلية ، بعد ان كانت لها وكالة تجارية ، كما اقامت مقيمية في بغداد سنة ١٧٩٨ ، تولى مهمتها هارفورد جونز الذي كلف بان يعد تقريراً مفصلاً عن احوال العراق الاقتصادية والعسكرية . ثم جاء التنافس البريطاني ـ الفرنسي بعد الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨ ـ ١٨٠١) ، حافزاً قوياً لبريطانيا لتقوية تمثيلها الدبلوماسي في

---

(١) انظر : مقدمة جعفر الخياط في ترجمته للرحلة المعنونة . رحلة فريزر الى بغداد في ١٨٣٤ . ط ١ . بغداد ١٩٦٤ . ص ٥ ـ ٦ .

العراق لمراقبة النشاط الفرنسي المتصاعد في الوطن العربي وما جاوره من اقطار الشرق الاوسط .

وفي اثناء تلك الحقبة كثر اتصال العراق بالعالم الخارجي وتعددت اوجهه ، وصار الكثيرون من الاوربيين وغيرهم يقصدونه ويتجولون في أرجائه ، او يقيمون فيه مدة تقل أو تزيد تبعاً للمهمة التي يأتون من أجلها .

ان ما نقدمه ، هو دراسة لنصوص مختارة مما كتبه الرحالة عن بغداد في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وعسى ان تكون نافعة ومفيدة ، ومن الله التوفيق وبه نستعين .

اوائل الرحالة الى بغداد في العصر الحديث

مع بدايات العهد العثماني في العراق ، كانت صورة بغداد قد حددت ملامحها من قبل أحد الذين رافقوا السلطان سليمان القانوني في حملته عليها ، وهـو نصوح السـلاحي المطراقي ، حيث رسم في سنـة ١٥٣٧ م ، مواضعهـا المهمة كـالمقامـات والمشاهد والأبنية الرئيسة ، وكذلك سور بغداد الشرقية الذي يظهر اقرب ما يكون الى وضعه في العهد العباسي الاخير ، غير ان الابواب التي صورها على السور ثلاثة ، وهي الباب الشمـالي (بـاب السلطان) والباب الجنـوبي (بـاب كلواذا) والبـاب الوسطاني (باب الظفرية) ، امام باب الطلسم (باب الحلبة) فلم يصوره وهو الامـر الذي يدل عـلى انه كـان مغلقاً في ذلك الوقت[١] . وخارطة المطراقي تـؤشر ، في الزاوية الغـربية التي يلتقي عندها السور بدجلة ، سوراً يحيط بهذه الزاوية على شكل ربع دائرة ويفصلها عن القسم الداخلي من المدينة ، وذلك « مما يدل على ان الزاوية التي بنيت فيها القلعة فيما بعد كانت مسورة آنذاك ، والراجح انها كانت قد اتخذت قاعدة للدفاع عن المدينة من جهة الشمال الغربي »[٢] .

وبعد مضي ما يقارب الأربعة عقود على السيطرة العثمانية

---

(١) انظر مصطفى جواد واحمد سوسة ، دليل خارطة بغداد المفصل ، بغداد ١٩٥٨ ، ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ .

(٢) مصطفى جواد واخرين ، بغداد ، ١٩٦٩ ، ص ٦٤ .

للبلاد ، اخذت طلائع الرحالين الاوربين تصل الى بغداد بدوافع عديدة ، حيث شهد العصر الحديث منذ مطلعه تطورات سياسية واقتصادية سريعة بحكم الصراع الدولي على المنطقة . ولعل من ابرز اولئك الرحالة سيزار فيدريكو[٣] C. Federigo ، وليونهارت راوولف[٤] L. Rauwolf ، ورالف فيتج[٥] R. Fitch ، جون ايلدر[٦] J. Eldred ، وبيدروتيكسيرا[٧] P. Teixeira ، وبيترو ديلافال[٨] P. Delavlle ، وجان باتسيت تافرنييه[٩] J. B. Tavernier ،

---

(٣) احد تجار البندقية ، وقد زار بغداد في عهد الوالي خضر باشا وذلك سنة ١٥٦٣ م وسماها « بابل » .

(٤) طبيب هولندي قدم الى بغداد سنة ١٥٧٣ م في عهد الوالي عبدالرحمن باشا ، وقد ترجمت رحلته الى العربية من قبل سليم طه التكريتي .

(٥)(٦) انكليزيان شاهدا بغداد سنة ١٥٨٣ م ايام حكم الوالي الوند زادة علي باشا . وفيتج يخلط في مذكراته بين بغداد وبابل كداب سائر الجوابين الاوربيين في العصر الوسيط ، وقد مر ببغداد مرة اخرى بعد قرابة ثماني سنوات وكان عائدا من الشرق الى لندن .

(٧) برتغالي زار بغداد سنة ١٦٠٤ م في عهد الوالي مصطفى بن احمد الطويل وهناك ترجمة ملخصة لرحلته عن الانكليزية نشرها جعفر الخياط سنة ١٩٦٤ في العدد الرابع من السنة الاولى لمجلة الاقلام العراقية .

(٨) ايطالي زار بغداد سنة ١٦١٦ م ايام حكم الوالي يوسف باشا وكان هذا الرحالة اول من صحح الخطا السائد في ذلك الوقت ، اي تسمية بغداد ببابل ، وهناك ترجمة لجزء من رحلته نشرت في مجلة الاحد العدد (٥١) سنة ١٩٢٢ .

(٩) جوهري فرنسي ، مر بالعراق في سفره الى الهند ورجوعه منها سنة ١٦٣٢ م ، وسنة ١٦٥٢ م وبذلك شاهد بغداد في زيارته الاولى وهي تحت الاحتلال الصفوي وفي زيارته الثانية وهي تحت الاحتلال العثماني . وبعد

وأولفرت دابر[10] O. Dabr .

والملاحظ ان انطباعات الرحالة الاوائل عن بغداد تكاد تكون محدودة ولا تتجاوز في الغالب الوصف العام ، بحيث لا نجد الا اليسير من التفاوت في تقديم صور اوسع لمعالمها . ويمكن ان يعزى ذلك الى ان بغداد لم تكن مساحتها بعد قد شغلت في العصر الحديث حيزاً كبيراً في الساحة الدولية مثلما حصل في القرون الاخيرة ، مما جعل اهتمام الرحالة يوازي تلك الحالة . وهذا يفسر لماذا كانت مشاهدات الرحالة الذين جاءوا بعدهم ، تزداد تفصيلاً ودقة .

ان صورة بغداد ، كما كانت عليه في زمن زيارة اولئك الرحالة لها ، تعد مظهرا للحقب التاريخية التي اعقبت الغزو المغولي وما رافقها من اهمال لمعالم بغداد الحضارية . فالخراب الشامل قد استولى عليها حتى ان قليلاً من الابنية كان يستحق

تافرنييه اول الرحالين الاوربيين الذين وصفوا بغداد في تلك الحقبة وصفاً وافياً . وقد طبعت رحلته سنة ١٦٧٦ م ، ثم جدد طبعها سنة ١٧١٣ م ، وعنوانها « الرحلات الست في تركية وآسية » ونقلت بكاملها الى الانكليزية ، وطبعت في لندن سنة ١٦٧٨ م . وفي سنة ١٩٤٤ قام بشير فرنسيس وكوركيس عواد بترجمة ما كتبه هذا الرحالة عن العراق ، الى العربية وصدرت الترجمة العربية بعنوان « العراق في القرن السابع عشر كما رآه الرحالة الفرنسي تافرنييه » .

(١٠) هولندي زار بغداد في اواخر القرن السابع عشر ، ووضع كتاباً ضخماً عن اسيا الصغرى فيه وصف لمدينة بغداد معززة بخارطة كبيرة صور فيها المدينة واسوارها وابراجها كما كانت عليه في زمن زيارته لها . وقد طبع كتابه هذا في امستردام سنة ١٦٨٠ م .

المشاهدة[11] .

وبهذا الصدد نشير الى ما ذكره الرحالة الفرنسي جان باتيست تافرنييه الذي زار بغداد سنة ١٦٣٢ م وكانت تحت وطأة الاحتلال الصفوي ، حيث يقول : ان جوامعها معدودة وخاناتها العشرة متداعية وحالتها العمرانية سيئة وهي غير مأهولة بما يناسب سعة رقعتها[12] . وعن تلك المدة يتحدث ريجارد كوك قائلا :

« وهوت حال بغداد مرة اخرى الى الحضيض الاوهد ، فلقد أصاب الحصار[13] كثيراً من البنايات الكبرى فيها ولم يصلح من شأنها الا قليل . ولعل هذا الوقت هو بدء زوال ما بقي من مشيدات عهد الخلفاء ، وانهيار المدارس والحياة الثقافية في المدينة انهياراً

---

(١١) تكرر مثل هذا الانطباع عن بغداد عند الرحالة البريطاني جيمس بكنغهام الذي زارها سنة ١٨١٦ م حيث قال : « والمناظر القائمة داخل المدينة لا تثير الاهتمام بالشكل الذي يتوقعه المرء من الشهرة التي نعمت بها بغداد كعاصمة لامبراطورية شرقية لها غناها واهميتها » .

جيمس بكنغهام ، رحلتي الى العراق ، الجزء الاول ، ترجمة سليم التكريتي ، بغداد ١٩٦٨ ، ص ١٩٢ .

(١٢) العراق في القرن السابع عشر كما رآه الرحالة الفرنسي تافرنييه ، ص ٨٥ ـ ٨٦ .

وانظر : سروليس بج ، رحلات الى العراق ، ج ١ ، ترجمة فؤاد جميل ، ط ١ ، بغداد ١٩٦٦ ، ص ٥٩ ـ ٦٠ .

(١٣) يقصد به الحصار الايراني لبغداد سنة ١٦٢٣ الذي اسفر عن احتلالها مدة خمسة عشر عاما .

نهائياً[١٤] » .

ويظهر ان ابرز ما جلب انتباه اوائل الرحالة الاوربيين ، ان بغداد وهي في صورتها تلك ، حافظت على مكانتها التجارية ، مما دفعهم الى الاسهاب في الحديث عن انواع السلع التي تملأ اسواقها وما تصدره من بضائع الى شتى انحاء العالم . كما حظي باهتمامهم الجسر المعقود فوق سفن على دجلة ، التي يسهل قطعها او تحويلها في مجرى النهر او عكسه حسب حاجة المواصلات . وكانت في العهد العباسي جسور عديدة من هذا النوع . وتشير المصادر الى انه حتى منتصف القرن الحادي عشر الميلادي ، كانت هناك ثلاثة جسور معقودة عليه[١٥] .

---

(١٤) بغداد مدينة السلام ، ج ٢ ، ترجمة فؤاد جميل ومصطفى جواد ، بغداد ١٩٦٧ ، ص ٢٢ .

(١٥) للتفاصيل عن جسور بغداد في العهد العباسي ، راجع : غي لسترابخ ، بغداد في عهد الخلافة العباسية ، ترجمة بشير يوسف فرنسيس ط ١ ، بغداد ١٩٣٦ ، ص ١٥٥ ـ ١٦٢ .

صور لبغداد في القرن الثامن عشر

وتأتي رحلة آيفز Ives ، وهو احد العاملين في شركة الهند الشرقية الانكليزية ، في مقدمة الرحلات المهمة في القرن الثامن عشر ، وقد جاءت في وقت اصبحت فيه بغداد تحت حكم المماليك (١٧٥٠ ـ ١٨٣١)[١] كما ازداد النشاط البريطاني في المنطقة يومذاك[٢] .

وقد ركز آيفز الذي زار بغداد سنة ١٧٥٨ م ، اهتمامه بالاوضاع السياسية في العراق، فأسهب في تناولها وتحدث عن القوى الفاعلة في السلطة . ولكونه احد العاملين في شركة الهند الشرقية المعروفة بتمثيلها للتطلعات البريطانية ، فانه اولى اهتماماً كبيراً للناحية العسكرية ، لذلك نراه يفصل في رحلته عن اسوار بغداد وتحصيناتها ومدى قوة استعدادها العسكري .

وبهذا الصدد يقول ، ان سور بغداد يمتاز بالمتانة والابراج الكثيرة ، وتوجد على مسافات محددة فيه ، تسعة مواقع محصنة مزودة كل منها باربعة مدافع من النحاس الاصفر ذات احجام مختلفة غير انها وضعت بطريقة غير منظمة . ولاحظ جفاف الخندق الواقع امام السور ، على ان هناك مجرا مائيا دائما يربط بين نهر دجلة والخندق يبدو ان السلطات

---

(١) للتفاصيل ، انظر كتابنا : حكم المماليك في العراق ١٧٥٠ ـ ١٨٣١ ، بغداد ١٩٧٥ .

(٢) للتفاصيل ، انظر بحثنا المعنون « الدبلوماسية البريطانية في العراق » ، مجلة المؤرخ العربي ، العدد ١٨ ، بغداد ١٩٨١ ، ص ٦٢ ـ ٧٧ .

كانت تستخدمه عند الضرورة لملء الخندق بالماء عند مواجهة عدوان خارجي . ويبلغ ارتفاع السور من قاع الخندق حوالي اربعين قدما وتنتشر عليه فتحات كثيرة تتصل كل منها بحجرة صغيرة يتمركز فيها الجنود .

وكانت القوة العسكرية الموجودة في بغداد وقتئذ تبلغ (٥٠٠) فارس و (٤٠) الف جندي انكشاري[٣] يزاول عدد كبير منهم مهنة التجارة[٤] .

ويركز آيفز ، عند تناوله الاوضاع الاجتماعية ، على الإنكشارية ، الذين يعدهم طبقة مهمة لها نفوذها في المجتمع ، ويبدو انه يريد ان ينبه الى امكانية الاستفادة من هذه الطبقة كقوة مؤثرة في تطور الاحداث السياسية في بغداد ازاء قوة السلطة الحاكمة والممثلة بطبقة المماليك ، ولذلك لم تكن مصادفة ان يتعاون قناصل بريطانيا في بغداد مع رؤوساء الانكشارية

---

(٣) كانت هذه القوات الامبراطورية تتلقى اوامرها مباشرة من العاصمة العثمانية ، ولم يكن للوالي اي سيطرة عليها . وقد كلفت فضلاً عن المهمات الدفاعية بمهمات اخرى منها حماية الامن وجمع الضرائب . وان قادتها كانوا اعضاء في الديوان الذي هو الهيئة الحكومية العليا في الولاية .

(ستيفن هيمسلي لونكريك ، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ترجمة جعفر الخياط ، ط ٤ ، بغداد ١٩٦٨ ، ص ٥٩) .

(٤) في النظام الاساسي للجيش الانكشاري كان قد حرم على افراده تحريماً قاطعاً ان يعملوا في التجارة او الصناعة ، الا ان هذا النظام تعرض الى التصدع منذ مطلع القرن السابع عشر .

H. Gibb and H. Bowen, Islamic Society and the West,

VOl.I, Pt. I, (London, 1950), P. 182.

واستخدامهم في الضغط على الولاة . وضمن هذا السياق يتحدث عن وضع الانكشارية ، فيقول : انها كانت تناصب الولاة العداء بوجه عام ويخشاها السلطان نفسه وهي تتمتع بالكثير من الامتيازات ، كالاعفاء من الرسوم والضرائب ، كما انه لا يجوز مطلقاً معاقبة الانكشاري على اية جريمة يقترفها ، امام الملأ كما كان يحصل للاخرين[٥] .

ولعل من الطريف ان نورد ما يذكره آيفز من وصف للطريقة التي كان يستجوب فيها الانكشاري ، حيث يقول : انه كان يقتاد الى مقر خاص تغلق ابوابه فور دخوله فيحطه الجنود الانكشارية ويبدأ استجوابه ، فاذا اتضح لهم انه مذنب واستحق العقاب البدني (الضرب بالقرباج) قام احدهم بتنفيذ العقوبة واضعا ركبته اليمنى على الارض على ان لا يرفع يده التي تمسك بالسوط الى اعلى من اذنه . وتوضح هذه الصورة التي يقدمها آيفز شكلية عقاب الانكشارية . وحتى هذه العقوبة البسيطة يمكن الحيلولة دون تنفيذها ، اذ يذكر آيفز انه اذا اظهر احد الانكشارية الموجودين عدم موافقته على هذه العقوبة عن طريق احداث صوت خاص (نحنحة) او بالنهوض من مقعده فعندئذ يحذو الآخرون حذوه ويطلق سراح الانكشاري .

---

(٥) عن سلوك الانكشارية وحركات العصيان التي قاموا بها في العاصمة والولايات ، راجع بحثنا المعنون ، مدى مسؤولية الانكشارية في تدهور الدولة العثمانية ، . المجلة التاريخية المغربية ، العدد ٢٥ ـ ٢٦ . تونس ١٩٨٢

ونالت اوضاع بغداد العمرانية والتجارية اهتمام آيفز ، فتحدث عنها قائلاً : ان شوارع بغداد ضيقة جداً واسـواقها واسعة ومسقفة بجذوع النخيل تنتظمها فتحتات بعرض مترين لدخول الهواء واشعة الشمس . وشهد رواج الحركة التجارية ، فقد تجمعت المئات من الجمال خارج اسوار المدينة وكان يجري تحميلها بالبضائع الى دمشق والموصل . وقد وجد دور المدينة مكسـوة بالقـار ولدى تسـاءله عن سبب ذلك ، ذكـر له احـد الاساقفة ، ان بغداد تعرضت قبـل (٢٥) عامـاً الى فيضان مدمر ، وكان الاسقف شاهد عيان له ، حيث غمرت مياه نهري دجلة والفرات الاراضي الواقعة بين بغداد والحلة ، محولة اياها الى بحر كبير ، وأصبح التنقل بين المدينتين بوساطة المراكب . كما تدفقت المياه بكميات كبيرة الى داخل بغداد فتصدعت كثير من الابنية كما تهدمت تماماً ثلثمائة دار ، ولكي يتجنب السكان تكرار انهيار دورهم فقد حرصوا على اكسائها بالقار[٦] .

وفي ستينات القرن الثـامن عشر ، وصل بغـداد الرحالة الالماني كارستن نيبور Niebuhr ، وكان ضمن بعثة علمية تضم خمسة علماء دنماركيين والمانيين وسويديـاً واحداً[٧] ، اوفـدها

---

(٦) IVws, Edward, Ajourney from persia to England by an unusual Route, (London, 1773).

(٧) وهـؤلاء العلماء هم : البـروفسور بيتـر فردريـك كريستيـان فون هـافن (دنمركي) رئيس البعثة والمسؤول عن الدراسات الاثنولوجية واللغات القديمة . والدكتور كريستيان كارل كريمر (دنمركي) للدراسات والبحوث

فردريك الخامس ملك الدنمارك الى بلدان الشرق الادنى وجنوب الجزيرة العربية .

ولعل هذه الرحلة العلمية تعد آخر الرحلات في عصر الاستكشافات الجغرافية ، وباكورة رحلات العصر الاستعماري الحديث .

لقد كانت مهمة هؤلاء العلماء الخمسة موزعة حسب تخصصاتهم ، وهي الدراسات الاثنولوجية واللغات القديمة والعلوم الطبيعية والرسوم الفنية والدراسات النباتية ، وكان نيبور ، وهو المهندس والعسكري الوحيد في البعثة ، قد أنيطت به مهمة الدراسات الجغرافية والفلكية والرياضيات[٨] .

ويبدو من متابعة رحلة نيبور ، انه كانت له اتصالات بالهولنديين في منطقة الخليج العربي ، وانهم هيأوا له بعض مستلزمات تنقلاته في هذه المنطقة ، وقد زار مركزهم في جزيرة خارج[٩] ومكث هناك مدة شهرين ، واستطاع ان يجمع معلومات

المتعلقة بالعلوم الطبية ، والضابط المهندس كارستن نيبور وقد انيطت به مسؤولية الدراسات الجغرافية والفلكية والرياضيات ، والهر جورج ويلهلم بورينفند (الماني) وكانت مهمته الرسوم الفنية وحفرها على النحاس ، والبروفسور بيتر فورسكال (سويدي) طبيباً للبعثة ومتخصصاً بالدراسات النباتية .

من مقدمة للاستاذ سالم الالوسي لترجمة رحلة نيبور الى العراق ، ص ٦ ـ ٧ .

(٨) انظر المقدمة ذاتها .

(٩) جزيرة ذات اهمية في الخليج العربي ، تبلغ مساحتها عشرة اميال مربعة ، وهي قاعدة مناسبة لكافة الاغراض كافة الحربية والسياسية والتجارية ،

دقيقة جدا عن منطقة الخليج العربي بشكل خاص سـواء تلك المتعلقة بالاوضاع السياسية او الاجتماعية او الاقتصاديـة ، وكذلك السكانية بما في ذلك تفصيلات مواطن القبائل العربية . وقد رسم خريطة للخليج العربي ظلت هي افضل ما رسم للخليج حتى نهـاية القـرن الثامن عشر ، وهـذه الخريـطة لها اهميـة تأريخية ، اذ انها تبين منـازل القبائـل العربيـة المختلفة عـلى شواطىء الخليج العربي[١٠] .

وفيما يخص بغداد ، فانه كان قد حـل بها في حـزيران ١٧٦٥ ولغاية ربيع ١٧٦٦ ، وكانت ملاحظاته عنها من الدقـة بحيث أيد الرحالة الذين جاءوا بعده صحة ما ذكره . ويظهر من دراسة رحلته ، انـه اولى اهتمامـاً كبيراً لجـوانب الجغرافيـة العسكرية والعمرانية لمدينة بغداد ، وقدم خرائط مهمة في هذا المجال وبخاصة اللوح التخطيطي الذي وضعه لها ، ويعد أول رسم لبغداد في العصر الحديث .

لقد اسهب نيبور في وصف سور بغداد وبروجه والتطورات

لذا سعت القوى الطامعة لاحتلالها ، وكان الهولنديون في مقدمتهم ، حيث فرضوا سيطرتهم عليها عام ١٧٥٢ .

للتفاصيل ، انظر بحثنا المعنون « التنافس الاجنبي على جزيرة خارج في القرن الثامن عشر » مجلة الشؤون الخارجية ، العدد ١ ، بغداد ١٩٨٢ ، ص ١٩ .

(١٠) انظر Niebuhr, Carsten, Voyage en Arabie, Amstrdam, 1776; Descriptionde L'Arabie, Amstrdam, 1774.

التي طرأت على تحصيناته ، فذكر ان للسور عشرة بروج في كل منها ما بين ستة الى سبعة مدافع . وفي السور من الداخل عدد كبير من الاقواس المزدوجة المركبة بعضها على بعض وفيها مزاغل كثيرة تستعمل للرماية وللدفاع بالبنادق عن الخندق المحيط بالسور . وينبه نيبور الى ضعف السور وعدم صلاحيته للدفاع اذ ليس فيه شيء من وسائل الدفاع والتقوية من الخارج ، يضاف الى ذلك ، ان المدافع المنصوبة في ابراج الباب الجنوبي (قرانلغ قابي)[11] والطلسم والوسطاني هي من نوع المدافع الصغيرة . وبذلك يرى نيبور ان المدينة بوضعها هذا غير قادرة على الصمود امام هجوم قوات اوربية ، غير ان هذه التحصينات كانت كافية لمواجهة قوات الغزو الفارسي التي حاصرت بغداد في عهد نادرشاه[12] .

ويشير نيبور الى المستودع الرئيس للذخيرة في مدينة بغداد ، فيقول : انه يقع في الزاوية الغربية من المدينة ، وهو عبارة عن قلعة صغيرة تتولى مهمة حراستها ثلة من الانكشارية . والجسر الوحيد على نهر دجلة في بغداد والذي يربط بين الرصافة والكرخ قائم على اربعة وثلاثين قاربا تربطها ثلاث سلاسل متينة .

وبشأن الخارطة العمرانية لمدينة بغداد ، فان نيبور تناولها

---

(١١) باب الظلمات . ويسمى كذلك باب كلواذى واطلق عليه مؤخرا « الباب الشرقي » .

(١٢) شاه ايران (١٧٣٦ ـ ١٧٤٧) .

بدقة وتفصيل ، فهو يحدد مراكز التجمع السكاني في القسم الواقع على نهر دجلة القريب من سراي الوالي ، وبذلك فان القسم الاعظم من داخل المدينة مهدم وغير مسكون . ويمكن ان يعزي ذلك في اعتقادنا الى الحروب التي تعرضت لها المدينة في وقت قريب . ويضم الجزء المعمور من المدينة العديد من المساجد والتكيات والمدارس والخانات وهي ترقى الى عهود سابقة ، وفي مقدمتها المدرسة المستنصرية ومدرسة خان مرجان وتكيات اصحاب الطرق القادرية والبكتاشية والمولوية والرفاعية والنقشبندية والقلندرية والشاكرية . وتتميز تكية الطريقة القادرية بانها تحتوي على اروقة وغرف عديدة تكفي لايواء اكثر من ثلاثمائة شخص . وفي بغداد عشرون مسجدا لها منائر وهي غير المساجد الصغار التي ليس لها منائر وفيها وفي ارباضها اثنان وعشرون خانا اربعة منها في الضواحي من بينها ستة او سبعة خانات كبيرة يقيم فيها كبار التجار ، اما البقية فهي صغيرة .

ويظهر من مشاهدات نيبور ، ان المرافق العامة في بغداد كانت تشكو من الاهمال فهناك مستشفى ذو غرف صغيرة مظلمة يحجر فيها المجذوبون والمصابون بالامراض المعدية ـ السارية ـ . ويتحدث عن تدني الوضع العلمي فيقول ، ان العلوم لا ترى من يقيم لها وزناً خلافاً لما كانت عليه في عهود

---

(١٣) لقب لشجاعته ايضا بـ (دواس الليل) و (ابو سمرة) و (سليمان الاسد) وقد امتد حكمه من عام ١٧٥٠ ولغاية عام ١٧٦٢ .

الخلفاء حين كانت تلقى كل رعاية وعناية ويستطرد قائلاً : لقد وجدت في بغداد قليلاً من الناس يعرفون القراءة والكتابة .

ويعطي نيبور وصفاً لاوضاع بغداد السياسية على عهد سليمان باشا (ابو ليلة)[١٣] وهو اول من تولى الحكم في العراق من المماليك بعد ان يمهد له بحديث عن ولاية حسن باشا[١٤] وابنه احمد باشا[١٥] وما رافق عهدهما من مواجهة مع ايران وبشكل خاص حصار نادرشاه لبغداد[١٦] .

وفي سنة ١٧٧٥ ، وصف بغداد الرحالة الانكليزي بارسونز[١٧] Parsons ، ومما جاء في وصفه ، ان مقر الباشا يقع

---

(١٤) تولى باشوية بغداد عام ١٧٠٤ حتى وفاته عام ١٧٢٣ . وقد اشتهر باسم « جديد حسن باشا » . وما تزال في بغداد محلة تعرف بهذا الاسم ولقب بـ « الجديد » لتمييزه عن سمي كان قد حكم العراق من قبل .

(١٥) تولى باشوية بغداد عام ١٧٢٣ حتى وفاته عام ١٧٤٧ . خير مصدر عنه وعن ابيه : مخطوطة حديقة الزوراء في سيرة الوزراء لعبدالرحمن السويدي .

(١٦) رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر ، ترجمها عن الالمانية محمود حسين الامين ، بغداد ١٩٦٥ ، ص ٢٩ ـ ٣٥ ، ٤٤ ـ ٤٥ ، ٥٤ ـ ٧١ : بغداد في رحلة نيبور ترجمها من النسخة الفرنسية مصطفى جواد ، مجلة سومر ، الجزء الاول والثاني (المجلد العشرون) ، بغداد ١٩٦٤ ، ص ٤٩ ـ ٦٨ .

(١٧) كان في الاصل ضابطا بحريا ، وفي سنة ١٧٦٧ م عينته الشركة التركية وهي شركة انكليزية كانت تعمل في التجارة في بلاد الدولة العثمانية على شاكلة شركة الهند الشرقية الانكليزية ، قنصلا ووكيلا تجاريا لها في ميناء الاسكندرونة . ولقد استقال من منصبه هذا بعد ان قضى فيه ستة اعوام ، ثم بدا بالقيام برحلته الاستطلاعية التي جاءت به الى البصرة وبغداد .

قرب النهاية الغربية من المدينة ، وعلى بعد نصف ميل تقريبا يوجد الجامع الكبير . ويظهر من وصفه ، ان المؤسسات الحكومية الرئيسة كانت تقع بالقرب من مقر الباشا (السراي) ، وهي المدرسة العسكرية ودار ضرب النقود ودار الاسلحة .

وحول الوضع التجاري لمدينة بغداد ، فانه يقول : انها اكبر مخزن في الشرق فهي السوق الكبير لمنتجات الهند وفارس والقسطنطينية وحلب ودمشق . واسواقها كثيرة والضخمة منها مسقفة[18] ، وهي جيدة التموين ومزدحمة . ومما استرعى انتباه بارسونز عند تجواله في بغداد ، انتشار المقاهي بصورة كبيرة[19] ، ولدى استفساره عن عددها ، اخبر بانها (٩٥٥) مقهى وجميعها مسجلة في سجلات الحكومة اذ تؤدى ضريبة سنوية ، وعلم بان هناك (٤٩٠) طلبا لفتح مقاه اخرى[20] .

وزار بغداد سنة ١٧٩٧ ، الرحالة الانكليزي جاكسون ، وهي تعد اخر الرحلات المهمة لها في القرن الثامن عشر ، وجاء فيها : ان المدينة تمتد على ضفاف نهر دجلة حوالي ثلاثة اميال ،

ويعد شاهد عيان للغزو الفارسي ١٧٧٤ ـ ١٧٧٥ ويقدم وصفا دقيقا عنه في كتابه :

Travels in Asia and Africa, (London, 1808).

(١٨) وجدها اوليفيه الذي زار بغداد ١٧٩٦ ـ ١٧٩٧ ، اكثر تكاملا .

(١٩) استرعت انتباه بورتر ايضا الرحالة الانكليزي الذي زار بغداد سنة ١٨١٨ .

(٢٠) Parsons, A. Travels in Asia and Africa., (London, 1808). PP. 125-131.

وطول اسوارها من حافة النهر فيبلغ زهاء الميلين . ومثلما ذكر الرحالة الذين سبقوه فانه يشير الى رواج الحركة التجارية في بغداد وتعدد اسواقها ، غير انه لاحظ ان الاسعار فيها اعلى مما هي عليه في اسواق البصرة بصفة عامة . وظلت شوارع بغداد متربة من دون ان ينالها الاهتمام ، وقد شكا جاكسون كثيرا من هذه الحالة عند تجواله فيها . ويبدو من وصفه لدور المدينة ، ان معظمها مؤلفة من طابق واحد واستثنى منها الدور العائدة للوزراء وكبار ضباط الحامية . كما كان للباشا وبعض الشخصيات البارزة منازل ريفية في المناطق المجاورة لبغداد . ويذكر جاكسون انه عند تجاوز السور في الجهة الغربية من المدينة تبدو الارض صحراء قاحلة لا اثر للنبات فيها ابدا عدا ضفاف النهر . اما في شمال المدينة فيوجد ذات العراء فلا ماء ولا زرع . وتمتد على ضفة النهر من ناحية الشرق بساتين فخمة الى مسافة اربعة اميال ، على ان المدينة تزود بالفواكه والخضروات من الجانب المقابل للنهر (الكرخ) حيث تكثر البساتين والمزارع[٢١] .

(٢١) جاكسون ، مشاهدات بريطاني عن العراق سنة ١٧٩٧ ، تعريب سليم طه التكريتي ، بغداد ، بدون تاريخ ، ص ص ٧٢ ـ ٧٩ .

عصر التنافس الاستعماري وتقاطر الرحالة على بغداد

شهد مطلع القرن التاسع عشرَ اشتداد التنافس الاستعماري بين القوى الاوربية الكبرى ، حيث اعقب الحملة الفرنسية على مصر ، نشاطاً بريطانياً واسعاً في منطقة الخليج العربي والعراق من اجل غلق المنافذ امام الفرنسيين . وقد نجح السفير البريطاني في العاصمة العثمانية ايرل اوف الجين (Earl of Elgin) في الحصول على امتيازات لبلاده في العراق ، تضمنت رعاية القنصل البريطاني في بغداد لمصالح التجار والمسافرين ممن يتمتعون بحماية العلم البريطاني وافضليتهم على غيرهم بحصولهم على تسهيلات كمركية وضرائبية[1] .

وقدّ فتح هذا التنافس ابواب العراق على مصاريعها امام التجار والرحالة الاوربيين الذين اخذ معظمهم يتوافد ضمن مهمات خاصة للحصول على معلومات اقتصادية وعسكرية اكثر دقة وتفصيلا تفيد منها دولهم في تغلغلها في المنطقة .

وفي اطار هذا السياق ، تأتي رحلة مرزا أبي طالب خان[2]

---

(١) انظر بحثنا المعنون ، الدبلوماسية البريطانية في العراق ١٨٠٨ - ١٨٢٣ ، ، مجلة المؤرخ العربي ، العدد ١٨ ، بغداد ١٩٨١ ، ص ٦٢ - ٧٧ .

(٢) كتب النسخة الاصلية من رحلته المعنونة ، رحلات في آسية واوربه وافريقية في ١٧٩٩ - ١٨٠٣ ، (لندن ١٨١٠) ، باللغة الفارسية وقد ترجمت الى الفرنسية ، وقام بنقلها الى العربية الدكتور مصطفى جواد وصدرت في بغداد عام ١٩٧٠ بعنوان ، رحلة ابي طالب خان الى العراق واوربا ، ووصف مرزا ابو طالب فيما وصفه ماردين ، الموصل ، كركوك ،

الى بغداد سنة ١٨٠٣ ، وهو من رعايا حكومة الهند البريطانية ، وقد زار لندن والتقى هناك بكبار موظفي شركة الهند الشرقية وعدد من القادة العسكريين ، وزود باوامر الى المسؤولين البريطانيين في العراق لتسهيل مهمته .

وقصد ابو طالب فور وصوله الى بغداد في ٢٧ كانون الثاني ١٨٠٣ ، دار القنصل البريطاني هارفورد جونز[٣] Harford Jones ، مما سبب استياء والي بغداد علي باشا[٤] (١٨٠٢ - ١٨٠٧) حيث كان على صلة غير ودية بهذا القنصل . وقد جمع ابو طالب خان معلومات واسعة لمختلف جوانب الحياة السياسية والعسكرية ومراكز القوى في العراق ، وحاول خلق مظاهر تخدم هدف الاستعمار في تجزئة المجتمع والنيل من وحدته[٥] .

ومما جاء في وصفه لمدينة بغداد ، قوله : انها قائمة على ضفتي دجلة ، وهي تتألف من مدينتين احداهما قديمة والاخرى حديثة ، ويقصد بذلك جانبي بغداد الشرقي والغربي . يقيم في

بغداد ، كربلاء ، البصرة .

(٣) تولى شؤون المقيمية البريطانية في بغداد من عام ١٧٩٨ ولغاية عام ١٨٠٦ . وقد كلف من قبل رئيس مجلس المديرين في شركة الهند الشرقية ، بان يعد تقريرا مفصلا عن ولاية بغداد (سكانها ، قوتها العسكرية ، ومصادرها الاقتصادية وامكاناتها التجارية) .

للتفاصيل ، انظر : صالح العابد ، موقف بريطانيا من النشاط الفرنسي في الخليج العربي ١٧٩٨ - ١٨١٠ ، بغداد ١٩٧٩ ص ٩٧ - ٩٩ .

(٤) من المماليك ، وكان كتخدا في عهد الوالي سليمان باشا الكبير (١٧٨٠ - ١٨٠٢) وهو احد اصهاره .

(٥) انظر ص ٣٦٧ فما بعد من رحلته .

بغداد القديمة الباشا وكبار الموظفين . ويعد ابو طالب اول من اشار الى تحصين الجانب الغربي ، اذ يقول : « وهاتان المدينتان محيطهما زهاء ثمانية اميال وهما محصنتان باسوار تحيط بهما خنادق واسعة وعميقة تتخذ مزارع في ايام السلم ، وتملأ ماء من نهر دجلة بسهولة عند حصول اقل خطراً » . ويشير الى ان تحصينات المدينة القديمة اقامها والي بغداد سليمان باشا الكبير (١٧٨٠ ـ ١٨٠٢) ، ليحفظها من غارات الوهابيين .

ويقول مرزا ابو طالب ، ان مرافق بغداد لا تتناسب وشهرتها فعقودها قذرة وموحلة والاقامة فيها شتاء بغيضة واسواقها مظلمة . وميز دور اعيان المدينة المشيدة بالآجر ، كما اشار ايضا الى وجود محطات عند جانب الجسر الغربي تجتمع فيها المئات من الحمر والبغال المسرجة والملجمة التي تستأجر لنقل المسافرين خارج بغداد . وكما ذكر الرحالة الذين سبقوه ، فانه يشير الى وجود مقاه كثيرة وهي حسبما يقول : مظلمة وقذرة ، ويصف اسواق بغداد بانها جيدة التموين وخاصة بالفواكه كالرمان والليمون وآلو بخارى اي الاجاص المجفف ويقول انها ألذ ما أكله في عمره .

ووصل بغداد بعد خمس سنوات ، الرحالة الفرنسي دوبريه Dupre ، وقد جاءت زيارته في وقت شهد فيه العراق تصاعدا في التنافس البريطاني الفرنسي بعد ان تسلم سليمان باشا الصغير[٦] السلطة في بغداد بتأثير نفوذ السفير الفرنسي في

---

(٦) من المماليك وقد شغل ولاية بغداد من ١٨٠٨ الى ١٨١٠ .

الاستانة هوراس سباستياني[٧] Horace Sebastiani الذي كان شخصية لها نفوذها في بلاط السلطان[٨] .

وقد حظي دوبريه بمقابلة والي بغداد ثلاث مرات ، ويبدو انها كانت ضمن المهمة المكلف بها والمتعلقة بالعمل على جعل الفرنسيين على قدم المساواة مع الانكليز في مجال الامتيازات والطلب من والي بغداد الحد من النشاط البريطاني .

وتمتاز المعلومات التي دونها دوبريه في رحلته بالدقة والتفصيل ، وتعدد جوانبها وبخاصة في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية .

ففي المجال الاقتصادي يذكر دوبريه ، بان من الصعوبة ايجاد بلد أحسن موقعا واكثر ملائمة للزراعة من ولاية بغداد ، واضاف بان من السهولة الاستفادة من مياه انهار دجلة والفرات وديالى لاغراض الزراعة والارواء . وينبه الى انه على الرغم من اهمال الحكومة للبلد ، والواقع الذي يعيشه الفلاح ، فان الانتاج كثير ومتنوع بحيث ترتفع سنويا قيمة المحاصيل الفائضة عن الاستهلاك المحلي والمصدرة الى الخارج الى (٣٥٠) الف قرش . ويستوفي والي بغداد بطريقة الالتزام الضرائب المقررة على المحاصيل الزراعية ومقدارها الخمس . ويشير دوبريه الى ما يعانيه الفلاح من قساوة الملتزمين واضطهادهم . ويقول ايضا ، ان مستأجري الاراضي كانوا يدفعون ضريبة « الميرى » الى

---

(٧) عين سفيرا لفرنسا في العاصمة العثمانية في ٢ مايس ١٨٠٦ .

(٨) راجع كتابنا « حكم المماليك في العراق » ، ص ٧٢ .

خزانة بغداد ، ويستثنى من هؤلاء بعض الوجهاء الذين منحت لهم ايرادات الارض هبة . والطريقة المتعارف عليها حول ايجار الارض هو ان تمنح حكومة بغداد الارض مقابل ايراد سنوي يتفاوت مقداره حسب الظروف التي تحيط بها كوفرة المياه والقرب من مراكز التموين وغير ذلك .

ويتحدث دوبريه عن حركة صناعية اولية ، حيث يقول :

بان مصانع بغداد ليست ذات قيمة كبيرة وهي تقتصر على بعض الانسجة ومواد اخرى ، ويقدم قائمة بذلك وهي كما يأتي :

المواد المصنوعة في بغداد

الشال الاعتيادي ويقال سكرى	المناديل الحريرية
الشال المطبوع	التافتا
الشال المطرز	الشال
الاقمشة الحريرية والقطنية	الكجة (نوع من السجاد)
الانسجة الملونة	السجاد العادي
الانسجة المخططة	العباءات
الخيوط القطنية	الزجاجيات
المناديل (الفوط)	الصابون الذي يصنع من الشحم

البوشي (نوع من المناديل لتتحجب المرأة به) .

كما ان دوبريه يشير الى وجود مصانع للسفن من النوع المسمى (تكنه) التي يقدم لها وصفا دقيقا ، فيذكر انها تصنع من الخشب التوت او جذوع الاشجار وتغطى بطبقة من الزفت

الذي يجلب من مكان قريب من بغـداد القديمـة[9] ، وان هذه السفن طويلة وعريضة ويبلغ عدد مجاذيفها ستة ، وتسع لحمولة الفي قنطار . وتحتوي على غرفتين صغيرتين وصارية تخترقها عارضة طويلة يربط بها شراع مربع يستخدمه الملاحون عنـد هبوب الرياح بصورة عكسية .

وتزداد تفصيلات دوبريه عند الحديث عن تجارة بغداد ، فيقـول ان هذه المـدينـة تعـد مستـودعـاً لمختلف البضـائـع المستوردة ، فالقوافل تصل بصورة مستمرة ، وتتبادل بغـداد سلعها مع حلب ودمشق واستانبول واصفهان وتبريـز وتفليس وارضروم والمدن الاخرى . وبعد ان يـدخر مـا هو ضـروري للاستهلاك المحلي يصدّر التجار الفائض من بضائعهم الى الهند عن طريق البصرة ، وتحمل على السفن التي تنزل في دجلة ، وقد تكون هذه البواخر الذاهبة الى بومباي او البنغال انكليـزية او عربية .

ويخصص دوبريه الطريق التجاري الذي يسلكه الانكليز ونـوعية البضـائع التي ينقلونهـا الى العراق ، فيقـول : انهم يجلبـون معهم البضائـع الاوربية عن طريق الهنـد والخليـج العربي ، كما انهم يسلكون الطريق البري التقليدي الذي يصل الصين والهند بـالاستانـة وبغداد مـرورا باستـراخان وبحـر قزوين .

---

(٩) يريد الجانب الشرقي .

وفيما يأتي القائمة التي يقدمها دوبريه باسماء مختلف البضائع في اسواق بغداد :

البضائع الاوربية

الشراشف	القصدير
المخمل السادة	الزمرد
المخمل المطرز	الالماس
	الحرير الطبيعي
التفتا	الزئبق
القديفة	الزرنيخ
النسيج الملون	الارجوان
الساعات	المينا
الكرستال (بلور)	ماء الزئبق
معدات ولوازم طبية	البنادق
المسدسات	الأبر
المرجان	المينات (قاعدة الساعة)
الحديد	الفرو باختلاف انواعه
الفولاذ	

البضائع التركية

اقمشة صوفية	الدهون
الشاش الملون	الصابون
Aladja اقمشة	الزيوت
Beyaglon حريرية	البنادق
وقطنية	النحاس
	الأفيون

اقمشة مطرزة	المسدسات
الحريـــــر	

البضائـــع العربيـــة

الجمـــال	القهــــوة
الخيــــول	العنبر الرمادي
الغنـــــم	

بضائع الخليج العربي

الجــواهــــر

الاسماك المملحة

البضائع الايرانية

شـــالات كشـــمير	
زوالي كرمان وكاشان	
اقمشة يزد الحريرية	النفط الابيض
الانسجة الملونة	الفــــرو
الاقمشة الملونة	الجلـــود
القطـــن	الاثمار المجففة
الصـــوف	التبـــوغ
المطاط	

البضائع الهندية

الشـــال	النيلـــج
الاقمشة والشال المطرز	الســـكر
الاقمشة السادة	التوابـــل
الاقمشة الملونة	الكبريـــت
النسيج الملـــون	الكركـــم
اقمشة حريرية وقطنية	الملح الامونياكي

خيوط القطن	خشب الصندل
الخزف الصيني	مختلف التوابل الاخرى

البضائع المتبادل

منتوجات مقاطعة* بغداد

الرز	الجمال
الحنطة	الجلود
الشعير	جلود الاغنام والجاموس
القطن	النفط الاسود
الحرير	الصودا
العسل	الملح الأمونياكي
التبغ	الملح
العفص	البورق
الحنة	القطران
الصوف	ملح البارود
الخيول	

اما بخصوص الضرائب التي كانت مفروضة على التجارة فهي ٧,٥ ٪ على بضائع الاشخاص والدول التي لم تكن موقعة على معاهدات مع الباب العالي ، وكانت الضريبة تقدر حسب البالة او الصندوق او حسب الوزن وهذه تسمى « سقط » ، او حسب الاطوال وتسمى « صاغ » وكان يستقطع قرش عن كل بالة كرسم . وهناك بعض البضائع المعفاة من الضريبة كالنقد والذهب والفضة . وقد قدرت الرسوم على التجارة في بغداد

* هكذا وردت في الأصل

بمليون قرش .

وينتقل الرحالة دوبريه الى الحديث عن الأوزان والمقاييس والنقود التي كانت مستعملة في بغداد حينذاك ، فيذكر ان المثقال كان يساوي درهماً ونصفاً ، ويستخدم هذا العيار لوزن الذهب والفضة والجواهر . وتوزن سبائك الفضة بعيار ذي مئة مثقال .

والجدير بالذكر ان وزن بغداد أثقل بمقدار ثلاثة ونصف بالمائة من وزن الاستانة . ويستخدم في البيع والشراء قياسان مختلفان ، فيستعمل لقياس الشراشف ذراع حلب وبصورة عامة لجميع الاقمشة الأوربية وطوله شبران* وابهامان** . اما ذراع بغداد فطوله قدمان وخمسة اشبار وسبعة ابهامات (كذا وردت) ، ويستعمل هذا القياس لجميع الاقمشة الهندية والبغدادية .

وحول العملات المتداولة في بغداد فهي العملات ذاتها المتداولة في عاصمة الدولة العثمانية ، ومع هذا فان جميع المشتغلين في البيع والشراء يتعاملون بالبيزة (آنة) التي كل واحدة منها تساوي (٦٣) بارة ولا تصل ابداً اقل من (٦٠) . وقد سكت هذه البيزات القديمة في عهد السلطان أحمد ، وكان فيها معدنان . وبدأت المسكوكات تتردى منذ ذلك الحين ، وأن القطع النقدية في الوقت الحاضر تكاد تكون جميعها من النحاس . وفي بداية عام ١٨٠٩ اصبحت نقود الامبراطورية

---

* الشبر طوله حوالي ٢٥ سم .

** الابهام طوله حوالي ٢,٥ سم .

في حالة يرثى لها بحيث ادى ذلك الى قيام الحكومة في الاستانة بشراء جميع (الديكات الهولندية) و (زهينات فينيسيا) وذلك لصهرها : (٢) ديكات تساوي اعتياديا (١٨) بيزة التي تتحول الى ثلاثة فنادق[١٠] قيمة الواحدة (٨) بيزات . وقيم النقود الاجنبية تختلف في بغداد كما هو الحال في كل مكان ، وهذا التغير يتبع كثرة او قلة الطلب . ويصدر الى الهند الكثير من الديكات الهولندية وزهينات فينيسيا وبيزات اسبانيا و (تاليرات ماريا ترزيا) النمساوية . ولا تباع الجواهر والاقمشة الهندية وشالات كشمير الا نقداً ، وهذه العملية تمتص كميات كبيرة من العملات[١١] .

ومثلما كانت رحلتا أبي طالب خان ودوبريه ضمن سياق مصالح دولتيهما ، فان رحلة جيمس بكنكهام[١٢]

---

(١٠) نقود ذهبية عثمانية .

(١١) Dupre, Adrien., Voyage en perse faitdans lesannees 1807-9 entraver sant la Natolie et la mesoptamie, (paris, 1819), I, PP. 156-157, 178-203.

ويعتبر دوبريه احسن من وصف بغداد في الربع الاول من القرن التاسع عشر ورحلته جديرة بالترجمة .

(١٢) بكنكهام (١٧٨٦ ـ ١٨٥٥) اشهر الرحالة الانكليز في الشرق العربي ابان النصف الاول من القرن التاسع عشر . وقد بدا رحلته الى العراق عام ١٨١٦ عن طريق سورية فعبر البادية الى سنجار ومنها الى الموصل ثم دخل بغداد ليغادرها بعد ذلك الى الهند عن طريق ايران . واصدر بكنكهام مجلدين عن رحلته الى العراق ، كما صدرت رحلته عن ايران في مجلدين ايضا . وضم كتابه عن ايران فصولا خاصة عن البصرة والخليج العربي . كما اصدر بعد ذلك كتابا باسم « رحلات بين العشائر العربية »

Buckingham ، التي شمل بها العراق عام ١٨١٦ ، لا تختلف عن الاهداف ذاتها وطبيعة المهمات التي تخدم تطلعات القوى الاوربية في القرن التاسع عشر .

فالرحالة بكنكهام ، موظف بريطاني في شركة الهند الشرقية ، وخدم الشركة سنوات عديدة ، وعند وصوله بغداد حل ضيفاً على المقيم البريطاني كلوديوس جيمس ريج[١٣] Clo-dius Rich ، طيلة مدة اقامته . وقد تجول بكنكهام في مدن عراقية عديدة ، ودون مشاهداته في مجلدات .

وفي بغداد كان بكنكهام يتجول بصحبة ادلاء المقيم البريطاني ، وقد وصف المعلومات التي حصل عليها خلال تجواله ومن مصادر اخرى احجم عن ذكرها قائلاً :

« استطعت ان اجمع المعلومات بعناية وهي وان لم

تحدث فيه عن تطوافه بين العشائر العربية على امتداد فلسطين والاردن وسوريا والعراق .

(١٣) دخل ريج (١٧٨٧ ـ ١٨٢١) في خدمة شركة الهند الشرقية الانكليزية منذ سنة ١٨٠٣ حين عين سكرتيرا للقنصل بريطانيا العام في البحر المتوسط والمقيم في القاهرة ، ولما توفي هذا عين ريج مساعدا للكولونيل ميست القنصل البريطاني بمصر . وخلال اقامته تعلم اللغة العربية ولهجاتها المختلفة . وفي ٤ مايس ١٨٠٨ وصل بغداد ليشغل منصب المقيم البريطاني فيها حتى سنة ١٨٢١ .

Constance M. Alexander, Baghdad in Bygone days, (London, 1928), P. 10.

جيمس ريج ، رحلة ريج في العراق عام ١٨٢٠ ، ج ١ ، ترجمة بهاء الدين نوري ، بغداد ١٩٥١ ، ص ١٤ ـ ١٩ .

تكن كاملة الا انها حقيقية » .

واشار الى المخطط الذي رسمه نيبور لبغداد الذي بدا له انه كان صحيحاً بالنسبة لشكل المدينة وسعتها والضواحي المحيطة بها . ولدى مشاهدته لسور بغداد خرج بنتيجة مؤداها ان هذا السور يحمل من الدلائل ما يبرهن على انه قد تم تشييده واصلاحه في فترات عديدة متباينة .

والطريف ان بكنكهام يقول ان اقدم جزء في السور هو افضل الاجزاء وان الجزء المتأخر بناؤه اسوأ من سواه .

وبعد ان يتحدث الرحالة عن ابواب بغداد وابراج السور التي لا يختلف وصفه لها عن سابقيه من الرحالة ، يذكر ان باب المدينة الشمالي هو الباب الرئيس لانه يمتد من طريق كثير الحركة الى جزء مأهول اكثر نشاطاً من غيره من اجزاء المدينة ، ويضم ارضاً اعدت للعبة الجريد وسوقاً كبيراً وقصر الباشا . ولعبة الجريد نوع من السباق بين الفرسان أشبه بلعبة الهوكي ، وان الارض التي يشير اليها بكنكهام هي الحلبة المخصصة لها .

ولاحظ ان احسن انواع البناء الباقية في السور ، تبدو ظاهرة في اثنين من البروج الواقعة في الزوايا وعلى مسافة غير بعيدة من باب الوسط ، فهما يتميزان بالفخامة وجودة الآجر الذي شيد به ، وان دقة تركيب الآجر تضارع اي بناء قديم كان الرحالة قد شاهده من قبل ، والكتابة المستطيلة التي تمثل شريطاً عريضاً في الجزء الشمالي من هذين البرجين قد خطت بأحسن خط عربي قديم . ولم يظهر من صفة تلك الكتابة انها

كانت ذات الكتابة التي استنسخها (نيبور) من احد الابراج ، ويظهر من هذه الكتابة ان الخليفة الناصر لدين الله هو الذي شيدها في سنة ٦١٨ للهجرة او سنة ١٢٢١ للميلاد .

ومن الصور الجديدة التي يقدمها بكنكهام لبغداد قوله :

« ان مساحات واسعة من الارض الواقعة ضمن الاسوار لا توجد فيها ابنية ولا سيما الجانب الشمالي الشرقي منها . وحتى في الموقع الذي تكثر العمارات فيه وعلى الاخص الحي المأهول اكثر من غيره والذي يقع على مقربة من النهر ، تُرى فيه اشجار وفيرة . ولذلك فعند النظر ، من شرفات المنازل القائمة ضمن الاسوار الى هذا الحي يبدو وكأنه اشبه بمدينة تبرز من وسط بساتين النخيل ، او اشبه بما كانت عليه بابل كما يظن اي انه اقليم مسور وليس مدينة واحدة » .

ووجد الرحالة ، ان بناية السراي عصرية نسبياً[١٤] ، اما مساجد بغداد التي أسهب في وصفها فهي من اهم ما تشتهر به دار السلام بوصفها حاضرة اسلامية . ويعتقد بكنكهام ان عددها يتجاوز المائة ، منها ثلاثون مسجدا تعرف بمنائرها . ففي منطقة سوق الغزل ، حيث تباع الغزولات القطنية وتزدحم

---

(١٤) كان السراي وقت زيارة نيبور الى بغداد سنة ١٧٦٦ يتالف من كثير من الابنية معظمها متهدم مما يدل على قيام حكومة بغداد بتجديد البناء في فترة قريبة لرحلة بكنكهام .

(انظر : رحلة نيبور ، ص ٣٢) .

النسوة لشرائها ، لاحظ بكنكهام ان جامع سوق الغزل لم يبق منه سوى المئذنة وجزء صغير من الجدران الخارجية . ووجد ان الجـانب الحضاري الذي خلفـه العباسيـون يتمثل بـداخليـة الجامع ، حيث ترتفع سلسلة محاريب ذات أقواس مدببة تتدلى زخارفها كالرواسب الكلسية المتدلاة من الكهوف ، ومثـل ذلك يقال عن اثار النقوش العربية المدهشة التي كانت تزين بعض اجزاء مأذنة الجامع .

وفي جامع مرجان الذي لا يبعد عن الجامع السابق كثيراً ، وجد فيه الرحالة اثاراً مساوية في القدم لاثار جامع سوق الغزل ، وواجهته غنية بالنقوش العربية وباب مدخله جميلة جدا ، قدم لها الوصف الآتي :

« وهذا الباب مؤلفة من قوس عال ينتهي كل جانب منه بسلسلة من اشرطة فخمة منحوتة نحتاً رائعاً ، ترتفع على الجانبين ثم تلتقي معاً عند القمة وبنفس شكل القـوس ذاته تقريباً . وفي أعقاب آخر هذه الاشرطة قائمة كبيرة ذات قطر كاف يمكن اعتبارها عموداً لكنها لا ترتفع الى تاج الاشرطة الصغيرة . وهذه القائمة مخـططة بصفة لولبية على امتداد ارتفاعها وَتبدو على الاجزاء البارزة من هذه التخطيطات كتابات ونقوش دقيقة بُذِلَ جهد كبير فيها كتبت بنسق العصر الذي وجدت فيه » .

والطريف ان كثرة الكتابات التي كانت يتزين بها البـاب اثارت انتباه بكنكهام ، حيث يقول :

« وهناك فيض من الكتابات التي يستطيع اي امرىء نقلها اذا تهيأ له الوقت اللازم لهذا العمل الذي يتطلب عدة اسابيع على الاقل » .

وعند حديث بكنكهام عن جامع الخاصكي ، ذكر بانه لم يبق من صرحه القديم سوى جزء صغير يرى الناظر اليه « محراب الصلاة » الذي يستحق كما يقول شهرته العظيمة . فهو محراب ذو شكل مجوف يتوجه قوس يقوم على عمودين صغيرين لهما قواعد مربعة واعمدة مخططة بخطوط لولبية وبكميات كبيرة من الازهار اشبه بمجموعة زاهية وفيرة . وان اعظم مظهر للمحراب هو المروحة الجميلة التي تعلو تكوينه المعماري .

ولاحظ بكنكهام ، ان البناء الظاهر داخل المسجد كان يختلف عن أصل البناء من حيث عمارته وجودة بنائه ، فهو « لم يكن بسيطا » حسب بل وضعيفاً ، مما يدل على انه من تأريخ متأخر كثيراً . كما بدت المئذنة انها من بناء حديث فهي لا تظهر اي شيء ملموس لا في عمارتها ولا في شكلها كما هو شأن المآذن الاخرى في بغداد ..

وفي معرض وصفه لتجارة بغداد واسواقها ، يقول ان المصنوعات والمنتجات الهندية تأتي في مقدمة البضائع التي تزخر بها اسواق بغداد ، وان التجارة قد ازدادت عموما خلال السنوات العشر الاخيرة ، حتى ان عدد السفن التي كانت تصل الى البصرة وهي تحمل العلم البريطاني مشحونة بالبضائع الى

العراق بلغت ست سفن بعد ان كانت سفينة واحدة عدا السفن الاخرى العربية . وقد ربط بكنكهام بين اتساع حجم التجارة وتساعل حكومة بغداد في تلك الفترة .

وهنا يمكن القول ، بان تزايد النفوذ البريطاني بشكل خاص وما تحقق لهم من امتيازات جعل القيود المفروضة على التجارة البريطانية ضئيلة . وبهذا الصدد نشير الى ان الرسوم الجمركية على البضائع البريطانية هي ثلاثة في المائة من قيمة البضاعة ، وهذه النسبة تنظم حسب السعر الذي تباع به البضاعة في السوق . ولذلك لن يكون الرسم الجمركي مستحق الدفع الا بعد ان يتم البيع فعلاً ، بينما كانت الرسوم التي يدفعها الوطنيون سبعة في المائة . وكان للبريطانيين ايضا امتياز تجاري مهم ، وهو انه في حالة افلاس احد التجار الوطنيين يصبح ما لدائنيه من البريطانيين مستحقة السداد بكاملها قبل توزيع ما تبقى على دائنيه من اهل البلاد[١٥] .

ولا يختلف وصفه لاسواق بغداد من حيث تعددها وطول أزقتها عما ذكره الرحالة الذين سبقوه لكنه كان كثير الاعجاب بسوق الموسلين (البغتة) المحاذي لخان مرجان حيث قال عنه :

« لاحظت في هذا السوق خاصية لم ار مثلها في مكان آخر وهو وجود شريط من كتابات عربية قديمة تعلو عتبة

---

(١٥) انظر :

J. G. Lorimer, Gazetteer Of the Gulf, Oman and Central Arabia, VOl. I. Historical, Part IB, (Calcutta, 1915), P. 1275, 1277.

كل حانوت ، وقد حفرت بحروف كبيرة واعتني بها مثل اي من الكتابات الموجودة في المسجد ، ولقد نقشت هذه الكتابات بنسق وانتظام الى درجة تحمل المرء على الاعتقاد بأنها كانت معاصرة للسوق نفسه وهو قديم جدا ».

وواقع بغداد كمدينة تجارية جعلها تزخر بالخانات التي يقول بكنكهام ، بان عددها زهاء الثلاثين واشهرها خان يدعى « خان الاورطمه » الذي يمتاز بأروقته الكبيرة والصغيرة .

والحياة الاجتماعية في بغداد كما يصورها بكنكهام تشير الى ان جميع الموظفين الكبار في الحكومة مدنيين وعسكريين من الاتراك ، اما التجار والباعة فهم من العرب ، وتنزل عشائر عربية كبرى في ضواحي المدينة ، وان قلة الثراء هي الصفة البارزة بين كل طبقات السكان .

ويشير حديث بكنكهام عن القنصلية الانكليزية ، الى تزايد النفوذ البريطاني في العراق ، فهو يقول : ان القنصل البريطاني كلوديوس جيمس ريج يعد بصفة شاملة أقوى رجل في بغداد ، وانه يأتي بعد الباشا مباشرة[١٦] .

---

(١٦) جيمس بكنكهام ، رحلتي الى العراق ، ج ١ ، ترجمة سليم طه التكريتي ، بغداد ١٩٦٨ ، ص ص ١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٧ - ١٩٨ ، ٢٠٤ - ٢٠٦ ، ٢٠٩ - ٢١١ .

وانظر الاصل الانكليزي :

Travels in Mesopotmin, VOl. II, (London, 1827), PP. 177-178, 180-181, 189-190, 201-203, 209-212.

ان ما يذكره عن ريج يؤكده واقــع الوضع السيــاسي في بغداد آنذاك ، حيث ان ريج استطاع فرض سيطرته على الجهاز الحكومي ، حتى غدا مـطلعاً عـلى ما يجـري في المقر الرسمي للوالي . وان النشاط الذي مارسه طوال سنوات عمله في بغداد (١٨٠٨ ـ ١٨٢١) ، كان له تأثيره الكبير في تحقيق النفـوذ البريطاني في العراق[١٧] .

وزار بغداد سنة ١٨١٧ ، الرحالة الانكليزي وليم هـود Heude وحل ضيفا على المقيمية البريطانية ، وتكمن أهمية ما دوّنه في رحلته من معلومات انه كـان شاهـد عيان للتـطورات السياسية التي صادف حدوثها في بغداد وقت زيارته لها ، حيث كان الصراع على اشده بين اركان السلطة ، وانتهى بمقتل والي بغداد سعيد باشا (١٨١٣ ـ ١٨١٦) وتسلم نائبه داود باشا الحكم .

ومن المشاهد الممتعة التي ذكرها هود عن رحلته الى بغداد مراسيم الاستقبال التي تجرى في سراي والي بغداد ، حيث انه حـظي بمقابلة داود بـاشا (١٨١٧ ـ ١٨٣١) بـرفقة المقيم البريطاني ريج ، ومما يذكره حول تلك المراسيم :

« كان موعد حضور القنصـل قد حـدد سلفا وعنـد وصولنا الى الفناء الخارجي للسراي كان ينتظرنا عدد من الجند الانكشارية ثم ترجلنا من الخيول ، وادى الحرس

---

(١٧) Constance m. Alexander, Baghdad in Bygone days, (London, 1928), P. 245, 251.

التحية الاعتيادية لنا . ثم دخلنا الى الفناء الداخلي من باب صغير وواطئة فمررنا بين صفين من ثلثمائة كرجي يمتدون على طول الطريق المؤدي الى قاعة الاستقبال الرسمية ، وكان هؤلاء الكرج يرتدون أزهى الملابس ويتصفون بالوسامة والجمال ويتقلدون الاسلحة النارية الخفيفة والخناجر ويقفون في صمت ووقار . وعند مدخل القاعة كان الباشا يجلس على وسائد حريرية وعن يمينه يجلس رجال ديوانه وهم صامتون ثم رحب الباشا بقدومنا وذلك بانحناءة طفيفة لجسمه كما لو كان يستعد للنهوض . ثم جلسنا بعد ذلك على كراس نظرا لان القنصل ورفاقه لم يتعودوا الجلوس على الوسائد »[١٨] .

ويشير هود الى ان السنوات الاولى من حكم داود باشا شهدت توتر في العلاقات مع القنصل البريطاني كلوديوس ريج ، حيث ان داود باشا لم يتقبل ما وصل اليه ريج من نفوذ في البلاد . وبلغ التوتر اوجه حينما اعلن داود باشا بان « حكومة بغداد لا تعترف بأي حقوق اوربية » ، واصدر اوامره باستيفاء العوائد عن بضائع الاوربيين مضاعفة[١٩] .

---

(١٨) William Heude, AVoyage up the Gulf and Journey over land from India to England in 1817., (London, 1819), PP. 164-167-; 171-2.

(١٩) للتفاصيل انظر :

Lorimer, op. cit., VOl. I, pt. IB, P. 1325;

Alexander, op. cit., P. 260, 264.

لونكريك ، المصدر السابق ، ص ٣٠٧ ـ ٣٠٨ .

ومر في بغداد سنة ١٨١٨ الاثاري كربورتر Ker Porter في طريق عودته الى وطنه انكلترا بعد ان امضى فترة من الدراسة والتنقيب في ايران . وقد نزل ضيفا على المقيمية البريطانيـة . ووصف بورتر بغداد قائلا :

ان اطول اسوارها خمسة اميال وتقع قلعتها في النهـاية الشمالية الغربية للسور الكائن على الضفة الشرقية . ولكل من شـطري المدينـة ثلاثـة ابواب . ولاحـظ ان القسم الاكبر من الاماكن داخل المدينة كان مهدماً كما ان شوارعها ضيقة ، ويقول « ان الصورة التي كان يرسمها لبغداد بوصفها مدينة الف ليلة وليلة قد تلاشت عند مشاهدته لها » .

ويعطي بورتر الذي حظي هو الاخر بزيارة داود باشا والي بغداد ، سنة ١٨١٨ برفقة المقيم البريطاني ريج ، وصفا لمراسيم التقديم التي تجري في غرفة الاستقبال ومما جاء في وصفه :

ان الحلوى تقدم في اناء ذهبي يحمله خادم بيد وبـاليد الاخرى يمسك بملعقة من ذهب ايضا يضع فيها الحلوى في فم الزوار ، وبعد ذلك توضع مناشف من الحرير على ركبتي كل زائر وتقدم القهوة ، وبعد الانتهاء منها تستبدل المناشف الحريرية بمناشف من الموسلين جميعها مطرزة ، ويقدم الشربت في اقداح جميلة وثمينة . وبعد الانتهاء من كل هذه الاشياء يضب عـلى ايدي الحضور ماء الورد من ابريق من الفضة ، وبعد ذلك يوزع العطر فيوضع على لحية كل زائر وعلى شاربيه[٢٠] .

---

(٢٠) R. K. porter, Travels in Georgia, persia, Armenia and Ancient Babylonia

وتتخذ رحلة المنشيء « البغدادي » سنة ١٨٢٠ اهمية خاصة ، ذلك ان كاتب الرحلة ، وهو ايراني يدعى « محمد اغا الفارسي » كان يعمل موظفا في المقيمية البريطانية في بغداد ، وقد رافق المقيم البريطاني كلوديوس ريج في رحلته الى شمال العراق سنة ١٨٢٠ ، وان مدوناته عن المنطقة لها اهميتها من الناحية العسكرية . كما انه يتحدث عن بغداد ومصادر تموينها ومداخلها ، وعن المسافات بين المدن العراقية واهم المواقع وطبيعة الارض والموانع الطبيعية والعشائر والبيوت القائمة ، والعقائد والملل وضمن المناطق الممتدة من بغداد الى كرمنشاه ومن السليمانية الى همدان عن طريق شهرزور والمناطق الوسطى والجنوبية من العراق .

وقدم محمد اغا الفارسي مخطوطة رحلته باللغة الفارسية الى حاكم بومباي البريطاني سنة ١٨٢٢ ، ومن غير المستبعد ان يكون قد زود الجهات الايرانية بتفاصيل رحلته وبخاصة ان ايران كانت تشن في تلك الفترة عدواناً واسعاً على العراق .

ومما جاء في وصفه لبغداد ان لها خندقا عميقا وان بروجها وسورها محكمان بنيا من النورة والجص والآجر . وحدد اطراف المدينة قائلاً ، بان طرفاً منها يقع في رأس القلعة تجاه دار الباشا والاخر هو الميدان والثالث الصحراء والحد الرابع هو دجلة . ويذكر عن الجانب الغربي من بغداد ، ان فيه قرى وانهارا كثيرة منها نهر دجيل ويتألف منه اربعون قرية معمورة ونهر المحمودية

---

during the years 1817-1820, VOl. II, (London, 1822), PP. 243, 248-9.

ونهر ابي غريب ونهر الرضوانية التي تشتق من نهرَ الفرات ، وزراع الاراضي المجاورة للانهار الثلاثة الاخيرة من قبيلة الدليم .

ويصف سور الجانب الغربي (الجديد) وابوابه ، وهو السور الذي انشأه سليمان باشا الكبير[٢١] في زمن ولايته (١٧٨٠ ـ ١٨٠٢) . كما يذكر ان في بغداد القديمة اربعة ابواب الاول (باب الكاظم)[٢٢] ، والثاني (باب الشيخ معروف) ، والثالث (باب الحلة) ، والرابع باب الطرف الشرقي (الكريمات)[٢٣] . كما ان في بغداد « الجديدة »[٢٤] اربعة ابواب ، الاول الجسر في وسط البلد ، والثاني في الطرف الغربي من البلد (باب المعظم) ، والثالث (الباب الوسطاني) ، والرابع (الباب الشرقي)[٢٥] .

---

(٢١) احاطه بخندق صغير من الجهة الخارجية ، وشيد عدة ابراج فيه جهزت بالمدافع . وان هذا السور وان كان قد انشيء لاغراض عسكرية دفاعية الا انه استخدم حاجزاً لصد مياه الفيضان من جهة الفرات غرباً .
انظر ، احمد سوسة ، فيضانات بغداد في التاريخ ، القسم الثاني ، بغداد ١٩٦٥ ، ص ٣٦٥ .

(٢٢) الكـرخ .

(٢٣) ليس هناك ابواب بهذا الاسم ، ولم يعرف الا باب الحلة ، وقد زال ، والكريمات محلة معروفة ، ولم تكن بابا ، كما ان الجعيفر يطلق على باب الكاظم ، وهو محلة ايضا . وكان الكرخ مسورا ، فذكر له ابوابه .

(٢٤) الرصافة (الجانب الشرقي من بغداد) .

(٢٥) رحلة المنشيء البغدادي ، نقلها عن الفارسية عباس العزاوي ، بغداد ١٩٤٨ .

وفي سنـــة ١٨٣٤ ، زار بغـداد الرحـــالة والدبلومـــاسي البريطاني جيمس بيـلي فريـزر Fraser ، ويعد من المختصين بـالشؤون الايـرانية ، وقـد كتب عنها عـدة مؤلفـات منهـا ، « القزلباش » و « رحلة شتوية الى ايران » ، وهو ملم بـاللغة الفارسية .

وقد خصص فريزر جزءا مهما من رحلته الى العراق ، عن الاوضاع العامة في بغداد وشمالي العراق ، حيث وصف مجتمع بغـداد ومحلاتهـا وطبقات السكـان فيهـا ، وكـذلك العـادات والازياء ، كما تعرض لسياسة الولاة العشائرية ، وهو يتحامل على سكان البلاد من خلال بضع وقائع فردية .

وتـأتي رحلة فـريـزر ضمن السيـاق ذاتــه الذي يبغي استـطلاع الاوضاع في المنـطقة من اجـل اهـداف سيـاسيـة وعسكرية . وبهذا الخصوص يشير لونكريك الى ان فريزر رفع مذكرة عن احوال بغداد للحكومة البريطانية .

ويقتبس فريزر ، وصف جوانب عديدة من مدينة بغداد والحياة الاجتماعية ، مما كتبه الرحالة بكنكهام الذي زار بغداد سنة ١٨١٦ ، وبهذا الصدد يقول معللا اقتباساته :

« ويبـدو لي ان الوصف الذي عمد اليـه بكنكهام في كتابه ـ رحلات في بلاد بين النهرين ـ هو على درجة من الجودة بحيث انني سوف لا اترك مجالا متيسرا من دون ان ابادر فيه الى اقتباس شيء منه ... » .

يذكر فريزر ، ان اسوار بغداد تمتاز بالحصانة ، ومشيدة

بالآجر المحروق بالنار ، ومدعمة من كل زاوية بابراج مدورة لها فتحات (مزاغل) خاصة للمدافع ، وان ابوابها اعظم من ابواب المدن الموجودة في البلاد المجاورة .

ويشير الى اكتظاظ الجانب الشرقي من بغداد بالسكان وعمرانه ، وان هناك شموخ يستحق الاعتبار في خط الابنية المطلة على نهر دجلة ، وليس الجانب الغربي من النهر على مثل هذا الجمال في طراز الابنية وامتدادها . غير ان فريزر يقول ، انه قد اصيب بخيبة امل عندما رأى اسواق بغداد ، وليس السبب في ذلك افتقارها الى السعة والامتداد ، لانها على مقدار كاف منها ، ولا لخلوها من الناس ، او عدم وجود حركة فيها ، لانها في كثير من الاحيان مكتظة اكتظاظاً كافياً فتظهر بمظهر يزيد تنوعاً وبهاءً عما يلاحظ عادة في اسواق البلاد المجاورة . وانما هناك من ناحية البناء والعمارة فقر في التخطيط وحقارة في التنفيذ ، ومظهر من مظاهر التهدم ، الذي يعزى جزئياً الى الكوارث التي اصابت المدينة مؤخراً[٢٦] ، لكن كثيرا منه يرجع السبب فيه الى عيب اصيل وجد في طراز البناء منذ البداية . على ان بعض الاسواق ، ومنها صف ثلاثي او رباعي ممتد الى مسافة غير يسيرة ، من تشييد داود باشا ، وقد بني بناءاً جيداً بالجص والآجر المفخور ، وظلل عن الشمس بسقوف ذات أطواق عالية مبنية بالمواد نفسها . لكن اسواقاً اخرى كانت خربة جدا ، وكانت

---

(٢٦) يقصد طاعون وفيضان ١٨٣٠ - ١٨٣١ ، الذي تعرضت له بغداد اواخر عهد داود باشا والي بغداد .

سقوفها مصنوعة من مرادي الخشب الممدود بصورة وقتية غير منتظمة والمغطاة بالسعف او القش والقصب .

ولاحظ فريزر في مختلف اجزاء المدينة ، عدة فسح او « فضوات » مكشوفة يباع فيها انواع السلع ، وقد سميت باسمائها ، مثل « سوق الغزل » و « سوق الموسلين » و « سوق الحنطة »(٢٧) وما اشبه . ومن بين هذه كلها كانت اكبرها وازهاها السوق القريبة من الباب الشمالية الغربية ، او باب الموصل . وهناك سوق الميدان(٢٨) الذي تعرض فيه الخيل للبيع ، وهو محاط بالمقاهي ، وهو في الوقت نفسه الميدان العام للاستعراض .

ويتحدث فريزر عن الخراب الذي حل ببغداد بسبب تعرضها لوباء الطاعون والفيضان ، فقد انتشر الطاعون في اوائل ١٨٣١ واخذ يفتك بالسكان فتكاً ذريعاً ، وتأيد لدى المسؤولين في السراي ، بان عدد الموتى بلغ خمسة آلاف نسمة حتى شهر آذار

---

(٢٧) لعله سوق العلوجية .

(٢٨) لا شك في انه ساحة الميدان الحالية . وقد ذكر الرحالة بكنكهام الذي زار بغداد سنة ١٨١٦ في رحلته المعنونة « رحلات في بلاد بين النهرين » والمترجمة الى العربية بعنوان « رحلتي الى العراق » ج ٢ ، ص ٨٢ . وفي الاصل الانكليزي ص ٤٣١ ، انه في وسط المدينة تقريبا يوجد الميدان ، وهو مكان متسع حوله مباني الطبقة الارستقراطية . ولا يخلو الميدان كل ليلة من الازدحام باناس من مختلف الطبقات ، حيث تغنى هنا مختلف صنوف الاغاني الى جانب العزف الموسيقي وممارسة الرقص وايقاد النيران والمصابيح فضلا عن مظاهر الابتهاج الاخرى .

من السنة المذكورة . واستمر الوباء يحصد النفوس حصداً ، فخلت الشوارع من المارة ، وتكدست فيها جثث الموتى وعجز الاحياء عن دفن موتاهم ، فحل الصمت المروع محل العويل على الموتى . وزاد الأمر سوءا ندرة الطعام ووفاة معظم السقائين الذين يقومون بنقل الماء الى دور الاهلين . ومن بقي حيا منهم كان يأخذ الماء ليغسل جثة احد الموتى .

ثم جاء فيضان دجلة في الحادي والعشرين من نيسان ١٨٣١ ليزيد الامر سوءاً . وفي اوائل مايس انكسرت حدته وعنفوان الطاعون ، واخذت مياه دجلة بالانخفاض ، وتناقص الطاعون حتى زال في نهاية الاسبوع الاول منه خطر الطاعون والماء معاً[٢٩] .

ويتطرق فريزر الى استيلاء علي رضا باشا على بغداد وقضائه على المماليك سنة (١٨٣١) ، وطريقته في الحكم . ويقدم معلومات مفيدة عن عشائر جربا وعنزة وعقيل وزبيد[٣٠] .

---

(٢٩) يذكر كروفس وهو مبشر بريطاني كان يسكن بغداد يومذاك ، انه اخذ يسمع لاول مرة منذ ثلاثة اسابيع اصوات المؤذنين للصلاة ، وقد بدات الحركة من جديد تدب في المدينة التي فقدت ثلثي سكانها تقريبا .
انظر : خلاصة سفر المستر انطوان نوريس كروفس ، ووصوله الى بغداد واقامته فيها (منقول من الانكليزية الى العربية) . لم يطبع . مكتبة الدراسات العليا في كلية الاداب ببغداد ، رقم ١٢١١ ، ص ٣٩ ـ ٤٠ .

(٣٠) J. Baillie fraser, Travels in Koordistan & Mesopotamia, (London, 1840).
وتُرجمت الرحلة من قبل جعفر الخياط بعنوان ، رحلة فريزر الى بغداد في ١٨٣٤ ، ، بغداد ١٩٦٤ .

وفي منتصف القرن التاسع عشر ، اوفدت حكومة بومباي الى العراق جيمس فيلكس جونس ، وهو مستشرق ومساح انكليزي ليقوم بمسح طبوغرافي لمجرى النهروان القديم وتحديد مساره غير ان التقرير الذي اعده لحكومة بومباي كان من الشمولية والتفصيل ما تجاوز الغاية التي قدم من اجلها الى العراق . حيث تضمن جداول تفصيلية عن جميع ما يتصل بالحياة اليومية من النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وكل ما له علاقة بالفرد والمجتمع فضلا عن المسح الطبوغرافي الذي شمل نهري دجلة والفرات . وقد التحق به لمساعدته في انجاز المهمة وخاصة في مجال اعداد الخرائط اللازمة اعداداً دقيقاً مجموعة من العسكريين العاملين في البحرية الهندية . وتعد خريطة مدينة بغداد المرفقة بتقرير جونز عن رحلته الى العراق من انفس الخرائط في ذلك الحين .

وقد شهدت الفترة اللاحقة ، نشاطا متزايدا لبريطانيا في مجالات الملاحة والمواصلات من اجل الحصول على المزيد من النفوذ في العراق ، فاستمرت اعمال المسح ورسم الخرائط على قدم وساق حتى « أحضرت أدق الخرائط واحسنها بهمة لنج ، وفيلكس جونز وسيلبي وكولينغوود وبيوشر ، وظلت تستعمل هذه الخرائط حتى سنة ١٩١٤ »[٣١] .

يذكر جونز ، ان الصورة التي قدمها نيبور وبكنكهام

---

(٣١) لونكريك ، المصدر السابق ، ص ٣٥٢ .

وفريزر عن بغداد من الناحيتين السياسيــة والاجتماعيــة ابان القــرن الثامن عشر والعقــود الاولى من القرن التــاسع عشر ، لا تحمل الا القليل من الشبــه القريب من تلك الصــورة التي صوروها بها . فان هناك تدهوراً عاماً لا شك فيه اصاب المدينة نفسها ، كما هو الحال في سائر المناطق الاخرى من العراق الذي هي عاصمته .

ويحد جونز مساحة المنطقة التي تضمها بغداد وقت زيارته بـ (٧٣٧) (ايكـراً) ، وان استقامـات جدرانهـا شديـدة الاعوجاج وهذا ما توضحه الخريطة ، ويعلق على ذلك بالقول :

« يبدو انها شيدت من دون تخطيط منسق ، بل كان البناء يجرى حول مختلف المباني على حالتها اذ ذاك . ولم استطع ان اعين الدور الذي بنيت في اثنائه . ولكن حيث ان الخلفاء الاوائل كانوا اقوياء ، فان في وسعنا التخمين بان المدينة لم تكن تخشى الغزو الخارجي في الوقت الذي كان فيه عاهلوها يسيـطرون على مـا بين السنـد وجبل طارق » .

وحول « باب الطلسم » يرى جونز ، ان تشييده قد تم بعد بناء الكثير من اجزاء اسس السور ، لانها تحمل طابع التقادم ، وعلى ذلك من الممكن القول بان اسس سور بغداد تعود الى القرن الثالث الهجري في الوقت الذي تلقت المدينة فيه النذر الاولى من الاخطار الخارجية لاول مرة .

وكطبوغرافي ومساح ، فانه يؤشر على الخارطة التي اعدها

عن مدينة بغداد ، الترتيب الداخلي للمحلات والمباني ، كما يقدم وصفاً في منتهى الدقة لسور بغداد واستحكاماتـه ، فيقول ، للسور عشرة ابراج مدورة نصف مخبأة في السور الخـارجي بشكل نصف هلالي مبنية بالآجر ، تشكل كوى على بعض منها بضعة مدافـع يتبين عـددها من الاشـارات التي وضعت على الخارطة . وبعض هذه المدافع من النوع الكبير ، طويلة وثقيلة وتعد نماذج بديعة من النحـاس والنحاس الاصفـر ، من تلك المدافع المزوقة التي تعود للعهود المزدهرة . وقد رمي قسم منها في مدينة بغداد التي لا تستطيع الآن ان تتبجح بوجود مسبك يستطيع ان يحيلها الى مدافع صغيرة . واكثر قطعها اصبحت كخلايا النحل ، تدل الثقوب الكبيرة فيهـا على انهـا استعملت كثيرا في ايامها ، ولا يخشى المرء الا القليل من خطرها الآن ، وهي مشلولة في عرباتها . بل هناك بعضها مطروح على الارصفة بلا عربات . وهناك من يقول بتحويلها الى نقـود نحاسيـة ، ولكن الصعوبة في كيفية تكسيرها لامكان صنـع النقود منهـا . اما ازاحتها فعلا بايد ووسائل بغدادية ، فيبدو انه خارج عن حدود الامكـان ، ويقول البعض ان تـاريخ صنعهـا يعود الى قـرنين سابقين .

اما السور فانه يقف على خندق يبلغ عمقه في الاصل قرابة (١٨) قدماً بالنسبة لعلو السهـل الذي يقع وراءه . وتحيـط بالخندق جسور قوية من الخـارج على فواصل غير منتظمة . وفي ما بين الابراج المدورة توجد انصاف حصون بابعاد غير متساوية

لكي تقوي جدار السور الداخلي ، ولكي تحميه باطلاق النار الجانبية التي وضعت لها ـ كما هو الحال بالنسبة للسور نفسه ـ خروق تمر منها نيران المدافع .

والسور من الداخل مكشوف لمسافة (١٣) قدماً فقط . اما القسم الباقي منه فقد اخفي تحت متراس كثيف من التراب ، يقويه من جهة ، ويحمي البناء من فيضانات النهر التي تملأ السور وتضغط بشدة على الاستحكامات .

والسور يعطي بعض الوقاية للذين يدافعون عنه ، بالتقويس البسيط الذي يشابه غرف التحصين المدفعي الصامدة . وفوقه سلك للمارة ببعض اقدام قليلة . واصبح اعلى السور الان مزودا بالشرفات المفرجة . وقد كانت اربعة ابواب مع جسورها الصلبة (هي الآن محتاجة الى الترميم بشكل حاد) فوق الخندق ، تؤدى الى السهل الخارجي . اما الان فالمفتوح منها ثلاثة فقط هي : « باب المعظم » و « باب الشرقي » و « الباب الوسطاني » وان محيط الاستحكامات الشرقية ، وبضمنها سطح النهر ، هو عشرة الاف وستمائة ياردة . اما الغربية فهي خمسة آلاف وثمانمائة ياردة ، فيكون مجموعها ستة عشر الف واربعمائة ياردة ، وهو امتداد من المباني الاجرية يساوي تسعة اميال وفرسخين وربع الفرسخ حسب القياس الانكليزي .

والمدينة بحالتها هذه لا تقدم الا القليل من المعوقات امام قوة حسنة التنظيم ، لان من الممكن احداث فجوة في اي مكان عن

طريق اطلاق المدافع بضع دقائق . والقوة العددية للحاميات والسكان المحاربين من الضآلة بحيث انها لا تستطيع تغطية مواقع الدفاع اذ ما كانت مهددة من اكثر من نقطة واحدة ، اما من جهة النهر فان المدينة مفتوحة تماما . وبعدد قليل من البواخر او سفن المدفعية الصغيرة المنتشرة على « الشرائع » او اماكن الانزال ، فان قوة انزال صغيرة تستطيع احتلال الموقع ، اما عن طريق النوافذ او الشرفات ، او عن طريق زحف المشاة في الشوارع المفتوحة . والقلعة شأنها شأن المدينة من حيث الدفاع .

ولأهمية التفاصيل التي يقدمها جونز عن الترتيب الداخلي لمدينة بغداد ، نورد ما أعده بشأنها من جداول وهي كما يأتي :

محلة سوق الغزل

جامع سوق الغزل ـ اقدم جامع في المدينة . بني بأمر الخليفة المستنصر بالله في السنة ٦٣٣ هجرية . ولم يبق منه الان الا المنارة .

سوق الغزل

عقد الجيلاديين ـ العقد تعبير يعني مجموعة من البيوت بين شارعين .

عقد الحفرچية

عقد الشيشرچية

عقد الكنيسة

عقد المزرقچي

عقد الكلخانة

عقد التنانير

عقد دكة صمور

قهوة الاغـــا

عقد قهوة المخضر

محلة رأس القرية

عقد السقاقي

عقد الخاصكي

جامع الخاصكي - يقال ان هذا الجامع بني على كنيسة في سنة ١٠٩٤ .

عقد الگاوور

العقد الكصيف

عقد الرواق

عقد حاجي امين

عقد حمام حيدر

عقد الجنابيين

عقد العمار

عقد تكية البدوي

العقد الضيق

عقد ابو يعقوب

محلة سيد سلطان علي

جامع سيد سلطان علي . اعاد بناءه ابراهيم باشا في سنة ١٠٩٣ ولكن الضريح كان موجودا قبل ذلك التاريخ .

عقد الجاموس

تكية مرزه علي

عقد سيد سلطان علي

عقد سبع ابكار

قهوة المسجد

جامع حاج نعمان

بقچه‌لى قهوة

عقد العجيليين

عقد القاطرخانه

قهوة القاطرخانه

قهوة دياب

قهوة ام النخلة

عقد الحطابة

عقد سميكة

عقد گرموش دزكين

عقد الگاوور

عقد العطاطير

محلة قنبر علي

جامع قنبر علي

قهوة اسماعيل الكهية

قهوة الوقف

قهوة تختة بند

حمام قنبر علي

عقد الباب الصغير

عقد مسجد عبدالغني

عقد الحمام

عقد سيد عبدالله

عقد التكية

عقد فراشة

العهد الضيق

عقد اليهود

عقد النجاجير

عقد الخبابيز

عقد القوللغ

جامع الرحبانية ـ الجامع الذي بناه مرجان بن عبدالله بن عبدالرحمن السلطان الايلخاني في سنة ٧٥٨ هجرية (١٣٥٦ ـ ١٣٥٧ م) .

خان المرجانية ـ ان هذا الخان ذو سقف معقود وهو من امثلة البناء الشرقي القديم ، ويقال انه كان كنيسة قديمة ولكني اشك في ذلك واعتقد انه ملحق لجامع المرجانية في الاصل ومن جملة الموقوفات على بناء الجامع ويحمل تاريخ السنة ٧٥٩

الهجرية .

قهوة الاورطمه

محلة الحيدرخانه

عقد الحيدرخانه

عقد الجامع ـ وهو جامع الحيدرخانه بناه داود باشا في سنة ١٢٤٣ هـ .

عقد شفتالي

عقد الخشالات

عقد ايميش

قهوة البزارة

قهوة حسن

قهوة كمبته لى

جامع احمد الكهيا ـ وهو جامع بني في سنة ١٢١١ هـ وله قبة نفيسة فسيفسائية وقد اوقفت عليه جميع ايجارات سوق الميدان .

محلة حسين باشا

جامع حسين باشا ـ وهو الان جامع متهدم وقد كتب عليه انه بني في سنة ٧٢٨ هـ .

عقد الجامع

عقد مظفر آغا

عقد الباب الصغير

عقد حجي خليل

عقد سروان باشي

عقد الجيبه چى

محلة الفضل

عقد رابات

عقد خان لاوند

عقد الشبانه

حمام عيفان

قهوة التختهبند ـ (صاحبها ابو عصفور)

جامع الفضل ـ وهو جامع بني في سنة ١١٩٧ هـ ـ وقد بناه سليمان باشا وبالغ في تشييده .

والى الشمال الشرقي من هذه الناحية وقرب الباب الوسطاني يقع ضريح الشيخ شهاب الدين عمر السهروردي « سيف الله المسلول » وقد بني في سنة ٦٢٢ هجرية (١٢٢٥ م) .

قهوة احمد افندي

قهوة الوقف

عقد الجامع

عقد الچبقچي

قهوة الشبانه

محلة باب الآغا

جامع باب الاغا

عقد الدشتي

قهوة صغيرة

عقد باب الاغا

عقد العلوية

قهوة بروازى

سوق الحدادين

العقد الضيق

سوق الاسكچية

حمام بنجه علي

عقد الصفافير

سوق باب الاغا

عقد المنارة المقطوعة

محلة العاقوليـــة

عقد العاقولية ـ في هذه المحلة جامع يسمى جامع العاقولية يعود تاريخه لسنة ١٠٩٥ هـ .

عقد زراق حسين ..

عقد الطاق

عقد محمود اسطه

عقد الصخـــر

عقد الربيعي

عقد ابو دابس

حمام الكچه چيه

قهوة الكچه چيه

محلة جامع خضر بك

عقد كمش حلقه ـ وفيه جامع خضر بك وقد بنى في سنة ١١٣٢ هـ واوقفت عليه بعض الاراضي في الحلة .

عقد امام طه

عقد علي افندي

عقد باب الجامع

عقد ابو دراح

عقد الحمصچي

العقد الضيق

جامع العادلية

خان العادلية

قهوة جديدة

قهوة المحكمة

حمام القاضي

خان التمر

قهوة خان التمر

خان الدفتردار

خان المصبغة

خان الكمرك

حمام الكمرك

قهوة كافل حسين

قهوة الكمرك

سوق الصياغ - وهو سوق صاغة الذهب والفضة

سوق الهرج

سوق المولة خانه - وفيه سوق وجامع بناهما داود باشا في سنة ١٢٤٢ هـ واوقف هذا السوق على الجامع .

محلة الصفافير

عقد القايمقام

قهوة حاجي خضر آغا

عقد السكة خانة

قهوة السكة خانة

قهوة القزازين

خان قبچي كهيه‌سي

خان الصفار

خان المعظماوي

عقد القبلانيه

خان يعقوب

جامع القبلانيه - وقد بنى هذا الجامع في سنة ١١٣ هـ (١٧٢١ م) وقد اوقف عليه سوق الهرج .

قهوة الصفافير

جامع الوزير - بني في سنة ١٠٠٨ هجرية (١٥٩٩ م)

الجسر والقشلة - وتقع الى جنوبيهما بقايا الكلية الذائعة الصيت التي بناها الخليفة المستنصر بالله في سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٢ م) وعليها خطوط بديعة .

القشلة - ومعها المستشفيات

السراي - وهي المباني الحكومية

الحرم - وهي الجناح النسائي

محلة باب المعظم

جامع الباشا - بناه حسين باشا في سنة ١١٣٢ هـ (١٧٢٩ م)

جامع الازبكيه

عقد الطوب

عقد قصاب باشي

قهوة قصاب باشي

عقد قمرالدين

عقد دلى عباس

عقد قهوة المجارية

قهوة سعدي

قهوة الوقف

قهوة السقة خانه

محلة الميدان

قهوة المصلى

باب القلعة

جامع القلعة

قهوة السقاقي

عقد البقچة

عقد الشريعة

عقد نجم الدين

عقد المدرسة

عقد انبار

عقد كنج اغا

خان حسن بك

خان احمد كهية

قهوة الوقف

سوق احمد كهية

قهوة الخان

محلة البلنچيـــة

سوق البلنچية

قهوة البلنچية

عقد بابا كركر

عقد الروزنامچي

عقد عبدالله باشا

عقد شاهين

قهوة التختهبند

قهوة آچق باشا

حمام الباشا

سوق الحمام

محلة ايلان ديلي

جامع احمد افندي

عقد الشابندر

عقد الساقية

جامع علي افندي

عقد جامع علي افندي

عقد الكرد

عقد الطاق

عقد تپه الكرد

قهوة ايلي وللي

محلة المرادية

جامع مراد باشا ـ وقد بناه مراد باشا في سنة ٨٧٠ هجرية (١٤٦٥ م) واوقفت عليه وقفيات كثيرة منها قنـاة بلدروز في ديالى .

عقد المرادية

عقد مير البحر

عقد الطاطران

عقد دكان ضاحي

عقد بيرداود

محلة الطوبچيــة

جامع الخاتون

عقد الباشا

عقد فيض الله كهية

عقد قهوة دودي

عقد الطوبجية

محلة القراغول

عقد افترچير

عقد القراغول

عقد مهدي آغا

عقد الباچهچى

عقد زند

محلة كوك نظر

عقد الصابونجية

عقد الكلهچيه

عقد راس الكنيسة

قهوة رونچي

عقد تبة الكاوور

عقد فليح عبدالله

عقد شيخ محمد

عقد مسجد حاج علي

محلة دكان شناوة

قهوة المختار

عقد السراريج

عقد حاج علي

عقد السبيلخانة

جامع الخانم

عقد الخانم

عقد رسول آغا

عقد حمادي

عقد چوخدار اغا

محلة كنج عثمان

عقد الحرم

عقد المدرسة

عقد سورى قهوة

عقد النعمانية

عقد الاخـــور

عقد كنج عثمان

سوق كنج عثمان

مدرسة علي باشا

جامع الاصفية

عقد الدنكچيه

عقد سماكه

عقد العادلية الصغيرة

عقد شعبان بك

عقد الباروچي

خان الدنكچية

جامع العادلية

قهوة الدنكچية

محلة المهدية

جامع المهدية

قهوة المهدية

عقد شيخ نصر

عقد ابو عامر

عقد شيه

عقد تيره

عقد الدوريين

محلة عباس افندي

قهوة عباس افندي

قهوة شيخ محمود

قهوة ابن بشبش

قهوة ســـالم

قهوة خضير

قهوة ابو علي

عقد ايكنجي

عقد ابراهيم بك

عقد طارق سلطان بك

عقد ديوان افنديسي

عقد شيخ محمود بشرلي

عقد وشوش

عقد خليل آغا

محلة قاضي الحاجات

عقد كشيش

عقد سيد فرج الله

قهوة قاضي الحاجات

قهوة خان عدين

قهوة خان الدخن

قهوة خان الميره

عقد العلاوي

عقد الفتاتيل

عقد اليهود

محلة الطاطران

عقد الطابوقچيه

عقد النقاقيب

عقد حسين وتار

قهوة الوتار

عقد بني سعيد

قهوة قرط

عقد الحياج

عقد باس

عقد شمي

عقد شيخ سراج الدين

سوق شيخ سراج الدين

عقد الاباريقي

عقد صدري

عقد التكمه‌چي

عقد السبيلخانة

عقد طاق العيونية

عقد اهل برشت

عقد الحياج

عقد حبيب

محلة الهيتاويين

عقد القشلة

عقد نيبار

عقد خان الششترلي

عقد سبتى

عقد اليرغانچي

عقد الصندوقچية

عقد شيخ ابراهيم القدسي

عقد الدكمچية

عقد التنكچية

قهوة الهيتاويين

سوق الهيتاويين

عقد الدوكچية

عقد السويدان

عقد الكلخانة

عقد التختهبند

محلة الفراشة

عقد منارة المكطوم

عقد قره اصلان

عقد النقاقيش

عقد علوة الخيار

عقد سوق الشورجة

قهوة البزارة

عقد كواس

حمام الشورجة

عقد الحداد

عقد العينهچي

سوق البغال

سوق التمارة

محلة الشيخ

جامع الشيخ ـ مسجد ضريح الشيخ عبدالقادر الكيلاني الشهير وقد دفن فيه حوالي سنة ٦٥٠ هـ (١٥٥٢ م) ويزوره الكثير من المريدين المسلمين من جميع ارجاء العالم الاسلامي ويجري الماء اليه بواسطة قناة كافية من ماء النهر . وتقوم فوق الضَريح قبة فاخرة بنيت في سنة ٨٤٠ هجرية .

عقد الاغوات

عقد الشيخ الف

عقد القصابخانة

قهوة سلمان

عقد المزمبلة

عقد فــلان

عقد قهوة ام النخلة

عقد شيخ رفيع

عقد المطبخ

عقد المنزلاوي

عقد فضوة عرب

قهوة فضوة عرب

عقد الخندق

عقد تكية القنديلچي

عقد تكية البكري

عقد التسابيل

عقد الساقية

عقد الطاق ـ وهناك مسجد في هذه الناحية يسمى جامع النعماني بني في سنة ٧٨٠ هـ (١٣٢٩ م)

عقد قهوة شكر

عقد الفناهرة

قهوة الفناهرة

عقد القزازة

عقد العبايچية

عقد المعمار

جامع القزازة

محلة الســنك

جامع عبدالفتاح

عقد الطاق الاظلم

عقد شطبه

حمام الراعي

عقد السادة

عقد القصاصير

عقد الدباغخانة

عقد الباب الشرقي

عقد السريعة

محلة جميلة

عقد الشيخ الخلاني

عقد زهري

عقد اندروس

عقد الفوسچي

عقد الرهليين

جامع النعماني

عقد المجدية

عقد البهادرية

عقد شيخ بهاء الدين

قهوة ابو علي

محلة بنات الحسن

جامع بنات الحسن

عقد الوزي

عقد الكولية

عقد طاق صقر

عقد كاتب الدببة

عقد رأس العمار

عقد البصاصيم

محلة العوينة

جامع حاج فتحي

عقد البردونيين

عقد ريس العيونية

عقد الچناين

عقد العيونية

عقد عقيل

قهوة سليم

قهوة باب الجامع

عقد دكان سيد ملا حسين

محلة الدهانة

قهوة حسين الكردي

عقد قهوة علي خان

قهوة الدهانة

عقد التسامبل

عقد النجار

عقد قهوة مفانيس

عقد عمران آغا

عقد قانوس

محلة صبابيغ الآل

عقد صبابيغ الآل

قهوة صابيغ الآل

عقد كشاب

عقد البرغانجي

عقد النصارى

قهوة الصندوقچي

عقد الصندوقچية

عقد السويچية

عقد شيارة

العقد الضيق

محلة المريعة

عقد الشريعة

قهوة المريعة

عقد حرموش

عقد الفتال

عقد دكان حبوب

قهوة جوب

عقد ضريب

عقد الشالچية

عقد شفتالي

محلة شاه قولى

جامع حسن باشا

عقد باب السراي

عقد كلخانة

عقد صارى كهيه

عقد قليج اصلان

عقد السراريج

عقد المسطاقچية

عقد الاتمكخانة

عقد المطبخ

محلة دلال

عقد الصخر

عقد صالح بك

عقد المتولي

عقد رسول آغا

عقد كوموش دزكين

عقد العلمدار

عقد خرطوم الفيل

قهوة خرطوم الفيل

محلة جامع المالح

جامع المالح

حمام المالح

قهوة المالح

عقد صالح آغا

عقد القوشچية

عقد الدوريين

عقد ابو خشيم

عقد شيخ ابراهيم بن نصرالدين

عقد الفرنجي

عقد الكلخانة

عقد سمير

محلة المفرج

قهوة ابو غزال

قهوة مبارك

قهوة المفرج

عقد ابو شبل

عقد احمد حسين

عقد التعلوانة

عقد قره شعبان

عقد الطونچية

عقد التككچية

عقد المسجد

عقد علوش

محلة ابو شبل

عقد ابو شطيح

عقد حنون

عقد اليهود

عقد التوراة

عقد ابو سيفين

قهوة ابو سيفين

قهوة الكورپية

سوق الصراريج

سوق المنطقچية

سوق الخردة فروشية

سوق الچبقچية

قهوة الچبقچية

خان التتن

سوق التتنچية

سوق التحميس

قهوة زنبـــور

سوق الطويل
خان الرماح
سوق اليرغانچية
سوق السوخچية
سوق الصباغين
قهوة ملوكي
جامع الصباغين
خان الباچه چى
سوق الزنجيل
قهوة السختيانچيه
سوق الخفافين
سوق اليمنچية
قهوة حاج وهب
سوق الكبيچية
قهوة سلطان حموده
خان العفص
سوق اليهود
سوق الجايف
سوق القزازين
خان الذهب
خان البريسم
سوق الطغمة

قهوة الطغمة

سوق القـــز

سوق البزازين

سوق التتكيچية

خان الزرور

سوق الخياطين

سوق القيصرية

قهوة القيصرية

خان المعاملةچيه

سوق الغريب

سوق القوللغ

خان بكر

سوق الدساميل

خان مخزوم

سوق الاسكچية

قهوة الاسكچية

خان ايللي يكى

قهوة القوللغ

خان سلطان حمودة

سوق العريضه

خان جنى مراد

خان اليهود

خان الحياج
خان احمد آغا
سوق السريرچية
خان اندريه
خان جامع محمد بقال
قهوة الوقف
سوق رأس القرية
قهوة السقاقي
خان الجص
قهوة حاج امين
جامع حاج امين

القسم الغربي من المدينة

١ ـ البنايات العامة وفئات البيوت داخلها

جامع الشيخ صندل ـ وهو جامع بني في سنة ١١١٨ هجرية (١٧٠٨ م) واوقفت عليه الدكاكين المحيطة به .

٢ ـ جامع خضر الياس

٣ ـ جامع القيصرية ـ وقد بني في سنة ١٠٢٠ هجرية (١٦١١ م) واوقفت عليه ايجارات بعض الدكاكين .

٤ ـ تكية باب المعظم ـ وهي تكية البكتاشية الدراويش ، وعليه بعض الكتابات الكوفية النفيسة مطموسة ، من تاريخه غير مضبوط ، ولكنه حوالي سنة ٣٣٣ هجرية (٩٤٤ م) .

٥ ـ جامع شيخ موسى ـ وقد بني سنة ١٢٢٨ هجرية (١٨١٣ م) واوقفت عليه بعض البساتين ومعامل الطابوق بالاضافة الى بعض الابار والمزارع .

٦ ـ الوقفة

٧ ـ محلة الجعيفر

٨ ـ محلة وهاش

٩ ـ سوق حماده

١٠ ـ سوق خضر الياس التكارتة

١١ ـ سوق الحجاج

١٢ ـ سوق الدهدوانة

١٣ ـ سوق الجديد

١٤ ـ سوق شيخ صندل

١٥ ـ سوق العجمي

١٦ ـ الفلاحـــات

١٧ ـ سوق المشاهدة

١٨ ـ سوق العلوة

١٩ ـ محلة الكريمات

٢٠ ـ محلة رأس الجسر

٢١ ـ محلة الشواكة

٢٢ ـ منصور الحلاج

٢٣ ـ الشيخ معروف ـ وفيه ضريح الشيخ معروف الكرخي وقد شيد سنة ٦١٢ هجرية (١٢١٥ م) واوقفت عليه اجزاء من قناة الدجيل .

٢٤ ـ الست زبيدة ـ وفيه ضريح السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد (٢١٢ هجرية ـ ٨٢٧ ميلادية) شيده عبدالله المأمون وقد اجريت فيه اصلاحات حديثة .

٢٥ ـ الشيخ داود

جامع الحنان ـ بني سنة ١١٠٨ هـ ـ ١٦٩٦ م

جامع ابن عطا ـ بني سنة ١٢٢٣ هـ ـ (١٨٠٨ م)

جـامـع الست نفيسـة ـ بني سنـة ١١١٣ هجـريـة (١٧٠٦ ميلادية)

مسجد علاوي الحلة

مسجد باب السيف
مسجد رأس الجسر
مسجد البيجـــات
مسجد سوق العجمي
مسجد سليمان الغنام
مسجد بيت الشواف
مسجد محمود سوزه
مسجد ابن عطا
مسجد حمام الشامي
مسجد محلة الجبور
مسجد سوق حماده
مسجد حاج امين
مسجد حاج محمد
مسجد ملا نعمان
مسجد شيخ علي جبوري
مسجد ملا شريف
مسجد ساني (ثاني)
مسجد ملا كاظم
مسجد حاج عبدالله
حمام الشامي
حمام الجسر
حمام اليتيم

والمساجد بيوت صغيرة للعبادة تختلف عن الجوامع لانها لا تقام فيها صلوات الجمعة .

وبشأن الاثقال والاوزان المستعملة في اسواق بغداد ، يقول جونز ، ان اللحم والخبز والخضروات ومنتوجات الالبان وجميع حاجيات الاستهلاك المنزلي ، يستخدم اصحاب الدكاكين في بيعها الوزن البقالي المتألف من الأوقية وتعادل لبرة واحدة والمن ويعادل (٢٤) لبرة ، والوزنة تعادل (٩٦) لبرة[٣٢] . في حين يستعمل الوزن العطاري في بيع جميع المواد العطارية والادوية والتبغ والحلويات والشموع والخردق والحبال والصابون والصمغ والمسحوقات ، حيث يتألف هذا الوزن من الأوقية وتعادل (١٢) اوزاً ، والحقة تعادل (٣) لبرات ، والمن ويعادل (١٨) لبرة ، والوزنة وتعادل (٣٠) منا او قنطاراً واحداً ويساوي (٤٥٠) لبرة ، علماً بأن « قنطار » القسطنطينية يحتوي على سبعة امنان ذات عشرين لبرة ، وعلى ذلك فانه يساوي (١٤٠) لبرة . اما وزن العلوة فان الخمسة امنان تعادل وزنة علوة ، وعشرين وزنة علوة تعادل طغار علوة او (٢٥٦٠) لبرة .

وبشأن وزن الجواهر ، فانه يستعمل في بيع وشراء الذهب والفضة « المثقال » الذي يباع به في بعض الاحيان اللؤلؤ

---

(٣٢) ان الوزنة المستعملة في « خان الميوة » لبيع الفواكه والدهن الى الشارين بالجملة تحتوي على (٥) امنان بقالية وتساوي (١٢٠) لبرة ، وعلى ذلك فان باعة المفرد يبيعونها بالوزنة البقالية ذات (٩٦) لبرة .

ايضا . اما الاحجار الكريمة فتباع بالقيراط ، وكل قيراط يساوي (٢٤) حبة او مثقالاً واحدا .

ويستعمل في بيع وشراء الاقمشة والحرير والبياضات والمنسوجات القطنية المستوردة الى بغداد ، ذراع حلب وهو يوازي اليارد او (٢٧) عقدة . اما ذراع بغداد الذي يوازي (٣٢) عقدة فانه يستعمل في بيع الثياب المنشاة وغير المنشأة والبياضات القروية والبياضات المصنوعة في البلاد .

ويتحدث جونز عن اهمية موقع بغداد التجاري ، ويورد قوائم تفصيلية بالمسكوكات المتداولة في اسواقها والحاجيات والادوية والعقاقير التي تزخر بها واسعارها[٣٣] .

ويقدم رحالة الماني يدعى بترمان (Petermann) ، ما يفيد في تفصيل المعلومات التي ذكرها جونز بصدد الأوزان والاثقال ومقاييس الطول والمسكوكات النقدية ، حيث انه زار بغداد في وقت قريب من زيارة جونز لها وذلك في سنة ١٨٥٤ ، ومكث فيها خمسة اشهر في اثناء ولاية الباشا نفسه (رشيد الكوزلكي)[٣٤] ، فقال : ان اكبر الاوزان الشائعة فيها هو (الطغار)

(٣٣) قام بترجمة الفصل المتعلق ببغداد ، عبدالوهاب الامين ، وقد نشرت ترجمته القيمة في مجلة المورد الغراء التي تصدرها وزارة الثقافة والاعلام ، في العددين الاول والثاني من المجلد الثالث (١٩٧٤) ، وقد اعتمدناها في تناولنا للرحلة .

(٣٤) تولى باشوية بغداد سنة ١٨٥٢ وبقي في منصبه حتى وفاته سنة ١٨٥٦ . انظر : عباس العزاوي ، تاريخ العراق بين احتلالين ، ج ٧ ، بغداد ١٩٥٥ ، ص ١٠٢ ، ١١٠ .

ويقابل عشرين وزنة او ثمانين منـاً ، ويستعمل عـادة للحنطة والشعير . وفيما عدا ذلك ، يعد (القنطار) اكبر وزن ويساوي حسب ميـزان البقـال (٢٢) منـاً ونصف المن . وتـوجـد في (الوزنـة) الواحدة اربعـة امنان وفي (المن) ست حقق وفي (الربع) حقة ونصف . (والحقـة) الواحدة تقـابل اربعـة و (الوقية) الواحدة اربعة ارباع و (الربع) الواحد (١٦) ونصف مثقـال او (٢٥) درهماً . امـا (المثقال) فيسـاوي درهماً ونصف درهم او (٢٤) حبة و (الحبة) تساوي اربع قمحات . ويساوي الدرهم ثلثي المثقال وخمس اوقيات وحسب وزن الصيدلي تعادل حقة واحدة من حقق البقال . ويساوي منّ العلوة ثمـاني ونصفـاً من حقق البقـال و (الرطل) الواحـد يساوي نصف منّ ، وفي الموصل يقابل الرطل الحقة . وفي الحلة تقابل حقة البقال حقتين من حقق البقال ، وتساوي وقية الحلة وقيتين من بغداد . ويعادل منّ البصرة خمسة امنان في بغداد . بينما في سوق الشيوخ الوقية الواحدة تقابـل (٧) وقيات في بغـداد . وفيما يتعلق بمقيـاس الذراع ، فان ذراع حلب هـو اصغرها ، اذ تساوي خمس اذرع حلبية اربع اذرع بغدادية .

اما المسكوكات النقدية ، فان في بغداد يوجد (القران) وهو على نوعين ردىء وجيد . والقسم الردىء يقل بقـرش عند الجيد ، ويتعامل البعض (بالشامي) وبالقرش . وكانوا قبلاً يتعاملون بفئة المئة ، ويسمون ذلك في مصر والشام (شوشي) ، اما في بغداد نجد (أبي تاكه) وكان ثمنه يساوي اثنين ونصف

شامي او قرش . وقد استعملت هذه السكة في بغداد الى سنة ١٢٣١ هـ (١٨١٦) ، وفي تلك الايام كان الشامي الواحد يقابل قرشا . فأصبح بعد مدة مساوياً ثلاثة قروش . ثم ارتفع الى سبعة قروش ونصف وفي سنة ١٨٥٥ كان ثمن الشامي يساوي ثمانية قروش استنبولية او على الاصح ثمانية وربع قرشاً استنبولياً ، وهذا يعادل (٣٣) قرش بغدادي لان القرش الاستنبولي كان يعادل اربعة قروش بغدادية .

وفيما عدا ذلك كان في بغداد كثير من المسكوكات النمساوية لا سيما من فئة العشرة والعشرين (كرويات) ، وبقدر ما كانت هذه المسكوكات نادرة في النمسا كانت مبذولة في بغداد[٣٥] .

وشاهد بغداد في سنة ١٨٦٤ ، جون أشر Ussher عضو الجمعية الجغرافية الملكية في لندن ، وذلك ضمن رحلته التي قام بها الى الموقع الاثاري المعروف باسم « تخت جمشيد » ، القريب من شيراز .

ويقول جون أشر ، ان اول بناية لفتت نظره عند دخوله بغداد ، هي البناية الكبيرة الواقعة في الجانب الشرقي من المدينة ، وكانت بناية كئيبة يبدو فيها الاهمال والخراب ، وقد علم انها قصر الباشا .

---

(٣٥) بغداد كما وصفها السواح الاجانب في القرون الخمسة الاخيرة ، ترجمه وجمعه عن الالمانية سعاد هادي العمري ، بغداد ١٩٥٤ ، ص ٨٢ ، ١١٧ ـ ١١٩ .

وفي صباح اليوم التالي لوصوله ، ذهب بصحبة الدكتور هيسلوب Hyslop نائب القنصل البريطاني العام في بغداد يومذاك ، لزيارة الوالي[٣٦] الذي رحب بهما وبعد تقديم القهوة والغلايين دار حوار حول دوافع مجيء جون أشر الى بغداد الذي استحصل من الوالي على وعد بتزويده بكتب الى عدد من حكام المدن لتسهيل مهمته ، وبعدئذ غادروا ديوانه مخترقين جموع الناس التي كانت تزدحم بها الطارمات والممرات .

ويصف جون أشر ، اسواق بغداد ويقول انها ملأى بالسلع والبضائع من جميع الاصناف ، ومنها مقدار كبير من الكوفيات الملونة بالالوان الزاهية التي تعد من اهم المصنوعات البغدادية . وان الازدحام في الاسواق يشتد في فترة الصباح بخاصة بحيث يصعب على الراكب المرور . ويقول ان اصوات المنادين على السلع في تلك الاسواق ، مثل باعة الشربت والفاكهة وما أشبه ، كانت تصم الآذان .

على انه مع هذا كله يذكر ان قسماً من الاسواق كان بحالة شبه خربة ، وبعضها كان خرباً تماماً . ويضيف الى ذلك قوله ، ان التجارة مع كونها نشطة في بغداد حينما زارها ، الا انها قد

---

(٣٦) انه نامق باشا الذي تولى السلطة في بغداد لاول مرة سنة ١٨٥١ ، ثم تولاها للمرة الثانية في سنة ١٨٦١ ، واستمر في ولايته حتى سنة ١٨٦٧ حيث عزل منها .

انظر : عباس العزاوي ، تاريخ العراق بين احتلالين ، ج ٧ ، ص ٨٩ ، ١٥٤ .

انحطت عما كانت عليه من قبـل ، بحيث يمكن ان يقال بـانها وصلت الى ربع ما كانت عليه في عهد الخلفاء . ويستشهد على الحالة المزرية التي وصلت اليها مدينة « ألف ليلة وليلة » بما كانت تضمه يوم شاهدها من اكوام الانقاض التي تـزخر بهـا الفسح والمساحات الكبيرة الخالية .

ثم يقول ان الاراضي القفر تحيط ببغداد الى حد الاسوار . وتوجد في المدينة ثلاثة ابواب ، غير ان احداها وهي الباب الكائنة في الجهة الشرقية (الرصافة) قد اغلقت وسدت فتحتها بجدار من الطابوق منذ ان خرج منها السلطان مراد الرابع عائداً الى استانبول بعد ان استردها من الصفويين سنة ١٦٣٨[٣٧] .

وكان وليم بيري فوك Fogg ، اول رحالة امـريكي يزور العراق حيث وصل بغداد سنة ١٨٧٤ . وقبل مجيئه اليها زود بكتاب من قبل (جون . م . فرانسيس) السفير الامريكي في اليونان موجه الى (بوكر) الوزير المفوض للحكومة الامريكية في القسطنطينية فيه رجاء بأن يكتب له توصية الى بـاشا بغـداد لمعاونته في رحلته نظرا لعدم وجود تمثيل دبلوماسي امـريكي في العراق ، وعند وصوله بغداد وجد في انتظاره ظرفاً مع مـذكرة يصفها بانها لطيفة جدا من السيد بوكر وفرماناً من الحكومـة

---

(٣٧) John Ussher, London to persepolis, including Wanderings in Daghestan, Georgia, Armenia and persia, (London, 1865).

قام بترجمة ما كتبـه صاحب الرحلة عن العـراق ، جعفر الخيـاط ، بعنوان : « مشاهدات جون اشر في العراق » .

العثمانية موجهاً الى رديف باشا والي بغداد جاء فيه :

يا صاحب المعالي ..

ان حامل هذه الرسالة ، مواطن امريكي ، ذو وجاهة ، وهو يرغب في الوصول الى بغداد لزيارة ما حولها ، وقد رجنتي المفوضية الامريكية ان اكتب لمقامكم السامي توصية بشأنه . ان أسفار الاجانب ، يقتضي ان تحاط دائماً بالحماية ، والرعاية الخاصة ، وأرجوك ان تعامل السائح المذكور بجزيل الاحترام عند وصوله الى بغداد وان تقدم له كل التسهيلات الممكنة ، بالنسبة الى الظروف ، وان تؤمن له اسباب الراحة كافة مدة بقائه ، وان تبسط عليه حمايتك وضيافتك ..

القسطنطينية

في ١٩ شباط ١٢٨٩

يقول فوك في معرض حديثـه عن والي بغداد ، انـه كان معروفاً بمعاداته للنفوذ الاجنبي ومشاريع الاجانب في ولايته ، لذلك لم تكن العلاقات حسنة بينه وبـين المقيمين الاجـانب او رجالهم الرسميين . وقد حظي بمقابلة الوالي في مقره مدة ساعة كاملة ، فتحدث عن تلك الزيارة قائلا :

« لم يكن بناء القصر فخما ، الا ان موقعه على شاطىء النهر بديع وتلاصقه الثكنات (القشلة) ودار الصناعة ، وقد بنيت قبل سنوات قليلة ، بناها باشا سابق بناء واسعاً فخماً على الطراز الحديث في الهندسة المعمارية . ويقيم الباشا في السراي طول نهاره لتمشية الاعمال ، اما مسكنه الخاص فهو قصر انيق يبعد ميلين شمالا على النهر ، وهو محاط بالحدائق . وبعد ان اجتـزت الباب الخـارجي للسراي مـاراً بالحـرس والسـاحـة الخارجية ، وقد أبصرت فيها عدداً من الخيل وعليها سروجها واعنتها بيد السياس ، ومررت بحراس آخرين ، دخلنا الى ساحة واسعة ممتلئة بمجموعات من العساكر ، ومحاطة ببناء مستطيل ذي طابقين ، وله طارمات تواجه الساحة ، ويشغل هذا البنـاء الضبـاط والكُتاب ، فبعثت بـطاقتي مع التـوصيـة بيـد أحـد القواسين وطلبت مقـابلة صاحب المعـالي ، وعاد إليّ القـواس سريعاً ، مصحوباً بضابط شاب جميل الصورة هو أحد مرافقي الباشا ، فـأدخلني الى حجرة وجـدت فيها كثيـراً من الضباط ينتظرون وكان باب الغرفة محروساً بعساكر يحملون البنادق وقد ثبت عليها الحراب ، ثم أدخلت الى غرفة الباشا ، وهي غـرفة

واسعة ، مؤثثة اثاثاً نفيساً ، مطلة على النهر ، وقد رصت على جوانبها دواوين عريضة مغطاة بأغطية من الحرير والستائر على الابواب والنوافذ من القماش الغالي النفيس ، وكان الباشا جالساً في أقصى الغرفة ، قرب منضدة عريضة عليها ادوات الكتابة وأكوام من الاوراق ، وعندما تقدمت مجتازاً الغرفة الطويلة ، نهض الباشا ليستقبلني وصافحني وأشار الي بلطف كي أجلس الى جانبه ، وهو رجل عظيم الجثة ، طويل القامة عبل البدن ، ويبلغ من العمر خمساً واربعين سنة مستدير الوجه ، قد خالط لحيته الشيب ، وله عيون ذات نظرات حادة نافذة ، وكان جميع ملبوسه اوربياً ما عدا الطربوش ولم أر في ملبوسه ما يدل على رتبته اطلاقا ، وملامح وجهه تدل على الحيوية وعلى الجدية التامة ، اما اخلاقه فرقيقة ولطيفة ، وكان هناك ضباط عديدون واقفون قريباً منا ، ولكن احداً لم يجلس سوى الباشا وأنا . ولما كان الباشا لا يتكلم غير التركية والعربية . فأن المستر « ستانو » وهو شرقي في خدمة الحكومة ، انيطت به الترجمة ، وكانت محاوراتنا لا بد ان تجرى ببطء ، ولكن الاسئلة والاجوبة كانت تترجم فوراً وشعرت بارتياح كامل ، فقد سألني الباشا عن الطريق الذي قطعته للوصول الى العراق ، والى متى انا راغب في البقاء هنا ، الى اخر الاسئلة ، وقد ظهرت عليه اثار السرور عندما اجبته بأني ارتحت في بغداد وسررت فيها اكثر من سروري في القاهرة والقسطنطينية ، ووجدت الفرصة سانحة ، فاثنيت على مقدرته وحيويته في التدابير التي اتخذها ضد

الفيضان ، وبعد ان تناول كتاب التوصية الذي وصفني بأني سائح مع اسباغه عليّ كثيراً من صفات التقريظ ، وجه اليّ أسئلة كثيرة عن البلدان التي زرتها ، وظهر لي انه قد علم بوضوح ان امريكا وانكلترا بلدان منفصلان لا علاقة لاحدهما بالاخر . وقد تلطف فأمر بأن تقدم لي التسهيلات كافة لرؤية مدينة بغداد ، وقال لي ، بما أنك أنت الامريكي الوحيد ، الذي زار بغداد ، فاني ارجو ان تخلف فيك انطباعاً جيداً .. » .

وبعد تجوال فوك في بغداد وآثار بابل ، قام بزيارة ثانية للوالي الذي شرح له المشاريع التي يجري انجازها في البلاد ومنها خط سكة حديد وادي الفرات من ميناء الاسكندرونة على البحر المتوسط الى حلب ومنها الى نقطة على الفرات تبعد (٨٠٠) ميل عن بغداد ، وان هذا الخط عند اكماله سوف يبلغ طوله (١٥٠) ميلاً تقريباً . واشار الى نية حكومة بغداد في القيام بمشروع للسكك الحديدية والملاحة النهرية يربط البلاد بالخليج العربي ومنه الى الهند . كما اشار الوالي من خلال نافذة مفتوحة في ديوانه الى المنشآت المقامة في الجهة الثانية من نهر دجلة ، وهي المعمل الحكومي لصنع واصلاح المكائن ، ودار الصناعة البحرية (الترسانة) والمستشفى العسكري وبقية المباني العامة المجاورة . وقد زار فوك بعد المقابلة مباشرة ، دار الصناعة البحرية ومحل صنع واصلاح المكائن ومحل السبك ، فوجد ان هناك ستين رجلاً تحت رئاسة مهندس انكليزي ، ولكن العمال جميعهم من أهالي البلد ويصفهم بانهم اذكياء ومهذبون ،

ويقول ايضا ان ملاحظ العمل عرض عليه نماذج من اعمال العمال العراقيين فلم يجد فرقاً بينها والقطع المصنوعة في اوربا .

اما المستشفى العسكري[٣٨] ، فيصف بنايته ، بانها واسعة ولطيفة ، وقد تجول في ردهاتها مع الجراح المقيم ، وكان يلقى العناية فيها مائة وثمانون مريضاً كلهم جنود ، وقد لاحظ ان سقوف الغرف عالية والتهوية جيدة والملابس نظيفة وجميع الترتيبات في المستشفى مماثلة لأي مستشفى اوربي من نوعه ، كما شاهد الصيدلية والحمامات .

وضمن تجواله في بغداد ، زار قصر الباشا الخاص المطل على النهر في جانب الرصافة ، خارج سور المدينة[٣٩] ، فوجده « فيلا » حديثة محاطة بحديقة منسقة ، وقد بنيت قبل اربع سنوات ، ويقدم وصفاً لمرافقها الداخلية ، فيقول :

« ان الغرف مفروشة بترف عظيم ، فالثريات الفخمة من الكرستال والاثاث الفرنسية والتحف ، والزوالي الناعمة ، والستائر الحريرية ، يخيل لمن يرى ذلك كله ان هذا القصر معد لسكن الخليفة هارون الرشيد ، في ايام بغداد الزاهية ، وفي الحديقة أبصرت أبدع خيمة شاهدتها في حياتي فقد كانت من الحرير تتعاقب منها خطوط زرقاء وقرمزية واحدا بعد الاخر ، وقد ارتفع في قمتها علم الباشا ، وشاهدت في الاصطبل عشرات

---

(٣٨) صار يعرف بمستشفى الكرخ ، وقد هدم فيما بعد .

(٣٩) يحتمل ان يكون مسكن الباشا الخاص في منطقة الصليخ المحاذية لنهر دجلة .

مِن الخيل العربية الاصيلة ، وقد اخرجت منها عدة افراس لكي نتفحصها ، واني وان لم اكن من هواة الخيل ، ولكني اعتقد ان الباشا لو تفضل عليّ ، وطلب مني ان اختار واحدة من هذه الحيوانات البديعة ، اللينة العريكة ، الذكية ، الرشيقة في كل حركة من حركاتها ، فاني سوف اكون شديد الامتنان من هذه الهدية ، مقدراً لها حق قدرها . وقد كان من حسن حظي ، ان حرم الباشا ، لم يصلن الى بغداد بعد ، اذ لو كُنَّ هناك لكان الدخول الى البناية والى الحديقة محرما على كل واحد من الرجال » .

ومن الاماكن الاخرى التي زارها فوك ، مؤسسة خيرية هي مدرسة الصناعة[٤٠] للاولاد الايتام وقد وجد (٨٠) غلاماً تتراوح اعمارهم بين العاشرة الى الخامسة عشرة يرتدون ملابس رمادية أنيقة ، وأن قسماً منهم يعملون على مناسج يدوية ، وآخرين يخيطون ثياباً ، بينما كان اثنا عشر منهم ينضدون الحروف في بناية مجاورة . واطلع فوك على اصول التدريس في هذه المدرسة ، وبهذا الصدد يذكر ان التلاميذ يتلقون مختلف العلوم وان المعلم يستخدم السبورة في رسم الاشكال الخاصة بمبادىء علم الهندسة . ويتحدث عن مرافق المدرسة وهي غرفة الطعام واماكن النوم والمستشفى وجميعها كانت تعمل وفق نظم اعجب بها ، خاصة وان زيارتها لم تكن قد أعدت مسبقاً .

---

(٤٠) وهي مبنى مجاور لوزارة الدفاع ، والان هي قصر للثقافة والفنون .

وقد لفتت انتباه هذه الرحالة ، صورة الوالي مدحت باشا معلقة على الحائط في غرفة مدير المدرسة على الرغم من ان ولايته كانت قد انتهت سنة ١٨٧٢ ، ويعلق فوك على ذلك قائلاً : ان بغداد مدينة بجميع المؤسسات النافعة والمشاريع العامة التي يمكن ان تفتخر بها ، لذلك الحاكم الذكي المثقف الذي يستحق مثل هذا الاعتزاز .

واظهر فوك اعجابه بمطبعة الحكومة التي تقع بجوار مدرسة الصناعة ، ولم يكن يدر في خلده ، ان مؤسسة مثل هذه ، توجد في بغداد حيث تضم اجهزة ميكانيكية تعمل بالبخار ، في وسعه طبع (٣٥٠٠) ورقة في الساعة . وقد شاهد عملية طبع جريدة أسبوعية طبع وجه منها بالعربية والوجه الاخر بالتركية ويقصد جريدة الزوراء التي لم يذكرها بالاسم . ويقول ايضا ، ان المطبعة تطبع كل ما تحتاجه حكومة والي بغداد من اوراق ومطبوعات .

وينفرد فوك في رحلته بالاشارة الى وجود فكرة لدى والي بغداد رديف باشا لبناء جسر معلق عبر نهر دجلة ، وعندما حدثه الوالي بذلك ، أخبره فوك بأن امريكا تعد اكثر البلدان جسوراً ، وأن فيها اطول جسر معلق في العالم ، فطلب منه الوالي بالحاح ان يتصل باحدى الشركات الهندسية الامريكية لتتولى تنفيذ مشروع الجسر المعلق في بغداد .

ويختتم فوك حديثه عن زيارته لبغداد بالقول :

ان لدي الآن خير انطباع عن الحضارة في بغداد ،

مما لم يكن يدور في خلدي ، ومن ذا الذي يستطيع ان يقول انه لا أمل في مستقبل زاهر لاناس عندهم مستشفى وملجأ ايتام ، ودار طباعة ، وهم يديرونها ادارة كاملة وبكل انتظام . ومن ذا الذي كان لا يتوقع هذه الثقافة وهذه المدنية في مدينة ارتبطت في اذهان الاوربيين والاميركان مع العظمة التي كانت للخلفاء في عصر (الف ليلة ليلة) » .

وفي سنة ١٨٨١ زارت بغداد في ولاية تقي الدين باشا الثانية ، مدام ديولافوا وهي اديبة مؤرخة فرنسية ، وقد دونت معلومات لها اهميتها في دراسة الاوضاع الاقتصادية والعمرانية لمدينة بغداد . كما يستفاد مما دونته عن الحياة التعليمية في تأكيد الاساليب التي يستخدمها الاجانب للتغلغل في البلاد . ولاهمية ذلك نورد ما ذكرته بهذا الصدد حيث تقول ، ان في بغداد مدرسة كبيرة انشأتها هيئة فرنسية قدمت منذ سنين عديدة ، وتلامذتها كلهم من ابناء المدينة ، ومنهاج هذه المدرسة التي يتولى التدريس فيها الرهبان والراهبات ، مقتصر على الدراسة الابتدائية ، كما ان لهذه الهيئة مدرسة اخرى في البصرة . وتؤدي هاتان المدرستان نتائج بعيدة في تثبيت نفوذ فرنسا في الشرق وتوسيعه وانها لمست آثار ذلك خلال زيارتها لبغداد والبصرة بحيث أثلج صدرها كما تقول .

وتظهر ديولافوا ، تحت غطاء نقل الحضارة الغربية الى الشرق حماسها لضرورة اقامة حكومات في الشرق تدين في

ولانهـا لاوربا حيث تقـول : يعتقد جمـاعة من سـاسة اوربـا المحنكين ان من الممكن نقل الحضـارة الغربيـة الجديـدة الى الشرق والعمل على تمدينه وتلقيحه بمبادىء هذه المدنية المادية الحديثة في شتى مرافقه ولا سيما في شكل حكومته ، وتضيف قائلة :

« ان العادات والقواعد الأوربية لا تستطيع ان تعمل على ترقية وتقدم البلدان الشرقية بل ينبغي علينا ان نوجد لهم مبادىء اخرى نستخلصهـا من روحيتهم وميزاتهم النفسية ، عندئذ تكون سياستنا ناجعة ومفيدة » .

وتلفت ديـولافـوا الأهتمـام الى امكـانيـات العـراق الاقتصادية ، فتشير الى الفرق الشاسع بين حالة العراق ايام البابليين وتدهور حاله ايام العثمانيين ، فـالاراضي التي تحيط ببغداد تحولت الى صحارى قاحلة في حين كانت هـذه الاراضي بعينها في الزمن القديم ـ على حد قول هيرودوت ـ تنتج الحبة الواحدة من الحنطة فيها ثلاثمائة حبة في الاقل ، وان عـرض اوراق الحنطة والشعير يصل الى اربع اصـابع ، وان ارتفـاع سيقان مزروعات هذه الاراضي كانت عالية بحيث ان هيرودوت خاف على نفسه الاختناق بينها . وديولافوا في هذا الصـدد لا تختلف عن اولئك الذين تحدثـوا عن فلسطين بـوصفها ارض « الحليب والعسل »[41] من اجل جذب اهتمام دولهم لاستعمار

(٤١) وهو ما ذكره Joho Wilhelm Rowntree في رحلته الى فلسطين سنة ١٨٩٥ والمعنونة :

هذه البلاد واستيطانها .

تقدم ديولافوا معلومات عن « الترامواي » الذي كان والي بغداد مدحت باشا (١٨٦٩ ـ ١٨٧٢) قد انشأه لتسهيل النقل بين بغداد والكاظمية فتقول انه يقطع المسافة في ربع ساعة ، وان طريقه ، لا يتجاوز طوله ستة كيلومترات وتعطينا صورة عنه بحيث تجعلنا نعتقد انه لم يؤد الى الهدف المنشود منه ، فهي تذكر ان طريق الترامواي متعرج ، ضيق ، مترب ، اذا حدث وسقطت عربة او تعطلت بسبب انتشار المياه توقف العمل مدة طويلة .

وتتحدث عن المراكز التجارية في بغداد ، وتذكر بأن « خان أرتمه » يُعد من اهمها ، وهو عبارة عن بناء مستطيل الشكل له سقوف جميلة مهيبة تدل على فن معماري عريق ، وتـزينه من الخارج بعض الاعمدة التي تكون بمثابة سند للحنايا الكبيرة الثقيلة ، وهذه الاعمدة يفصل الواحد عن الآخر مسافة ثلاثة امتار . اما الحنايا فعلى نوعين كبيرة وصغيرة وكل منها تتصل بالاخرى . وعلى النوع الاخير بعض القبب المشبكة بحيث يكون للقسم المرتفع منها اتصال بالحنايا الكبيرة وينفذ خلالها النور . وفي نهاية هذا البناء الضخم جدا جدار طويل متكوّن من طبقتين لهما سياج مشبك ، وهذا السيـاج يعمل عـلى اضاءة الخـان وتنويره !!. وفي القسم السفلي من الحنايا ايضا منافذ تمر خلالها

---

palestine Notes and Other papers, Edited by Joshua Rowntree, Headley Brothers, (London, 1906) P. 10.

اشعة الشمس وتساعد ذلك السياج والقبب الصغيرة المذكورة على التنوير . والموزائيك ذو اللون الواحد الذي أنشيء به السقف وبعض المرافق الاخرى له منظر جميل جذاب يأخذ بألباب النظارة ، ولا سيما عندما يسقط عليه نور الشمس الوهاج !. واكثر اقسام هذا البناء روعة هو الايوان الذي يحيط بجوانبه من الاعلى ، الذي بذل مصممه جهدا جهيدا لاخراجه بهذه الروعة الاخاذة . ولخان « ارتمة » درج عريض ينتهي الى سطحه الذي يعد اعلى اقسام الابنية التي في بغداد اليوم ، ومن الجدير بالذكر هنا ، ان امثال هذا الدرج قليلة الوجود في الممالك الاسلامية لذلك يصبح لهذا الخان ميزة عمارية اخرى .

ولفت انتباه ديولافوا كثرة البضائع في المحال التجارية كالاقمشة الحريرية المصنوعة في دمشق واقمشة الململ المزينة حواشيها بالحرير وملاءات مذهبة الاكتاف يرتديها الرجال ، وعباءات نسوية بالوان مختلفة وحاجات نسوية اخرى كالاحذية المزينة بالازهار ومشابه ذلك . فضلا عن الادوات الحربية ومن مختلف الانواع وهي بحالة جيدة اي لم تكن من التحف الثمينة كما وجدت في الاسواق الاقمشة القطنية الانكليزية والبضائع الزجاجية الروسية ومصوغات محلية متنوعة . وهنا تشير ديولافوا ، الى ان الحكومة لا ترهق الصناع المحليين بالرسوم والضرائب الكثيرة وذلك لتشجيعهم والاخذ بيد الصناعة الوطنية ، كما انها لا تطلب منهم شهادات وشروطاً معينة لكي يمارسوا مهنتهم او لفتح معاملهم سواء الكبيرة منها او

الصغيرة ، وكل الذي تأخذه الحكومة هو رسوم يسيرة على تلك المصنوعات في حالة تصديرها الى الخارج فقط ..

اما عن المواد الغذائية في بغداد ، فتقول : انه يمكن شراء الدجاج المنزلي وانواع الطيور الاخرى باسعار زهيدة جدا ، والخروف الجيد لا يزيد ثمنه على ستة فرنكات . والاسماك كثيرة ومبتذلة لدرجة تدعو للدهشة ، كما ان الخضراوات والفواكه تملأ الخانات اكواماً فوق اكوام حتى انها تكاد تشكل هضاباً بحيث لا تستطيع ان تعبر بينها بسهولة .

وتنفرد ديولافوا في الاشارة الى وجود سيارة كانت تعمل بين بغداد والحلة ، غير ان هذه السيارة اصيبت بالعطل فتركت على جانب الطريق . وتقول ان هذه السيارة كانت قد كلفت خزانة الدولة العثمانية كثيرا[٤٢] .

ان الوقوف عند بعض الرحلات وتأشير الاهداف والغايات المرتبطة بها، يحمل في جانب منه التأكيد على أهميتها في الكشف عن مختلف جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وبخاصة وانها لم تكن مجرد انطباعات ومشاهدات ، ومن ثم فهي ذات قيمة غير اعتيادية كمصدر من مصادر تاريخ العراق الحديث والعديد من اقطار العروبة التي شهدت هي الاخرى قدوم رحالة لغايات شتى . وان مشاهدات الرحالة ، قد وفرت من

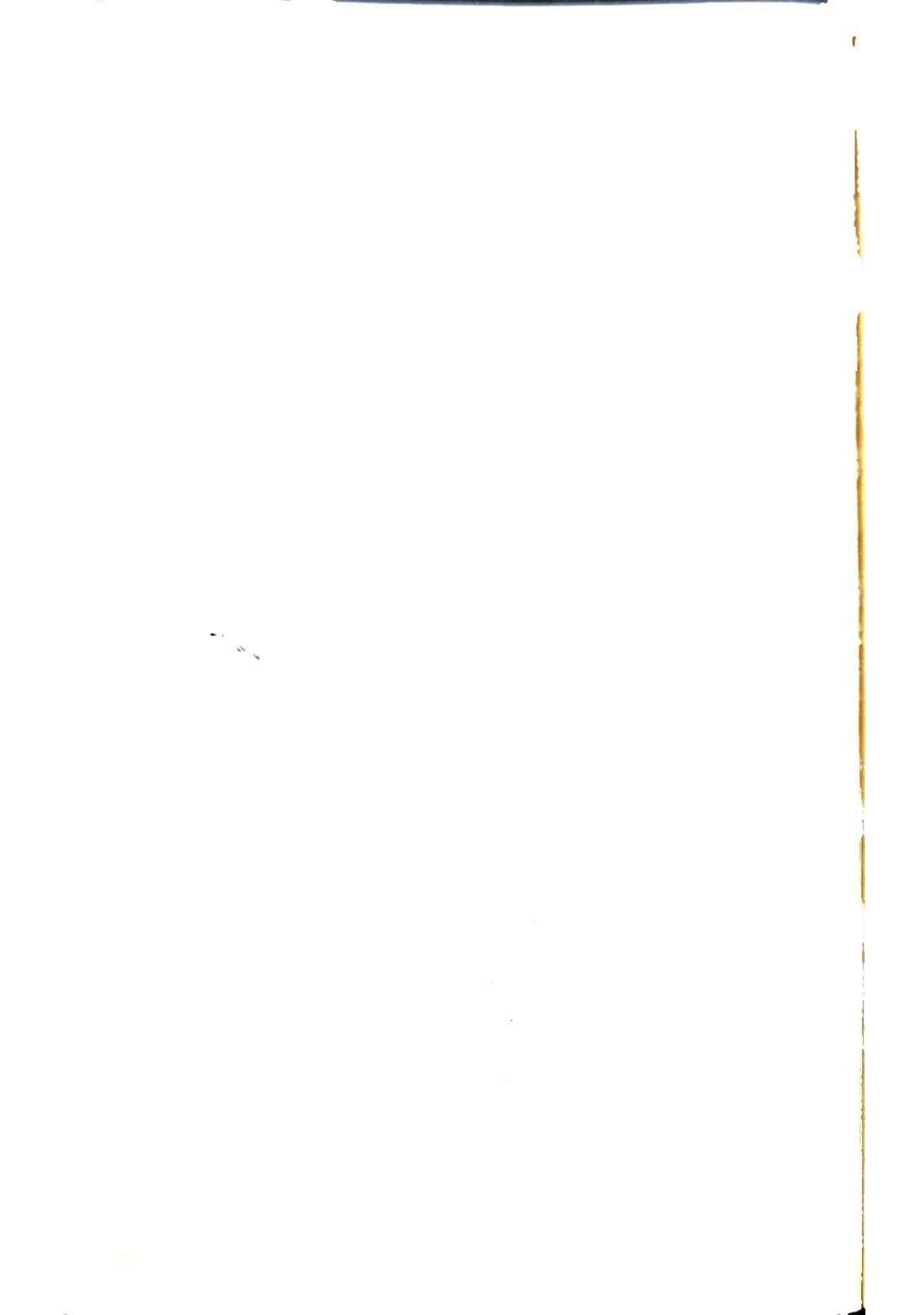
---

(٤٢) رحلة مدام ديولافوا الى كلدة ـ العراق سنة ١٨٨١ م ، ١٢٩٩ هـ ، ، نقلها الى العربية عن الفارسية ، علي البصري ، بغداد ١٩٥٨ .

الوصف الدقيق لمعالم عديدة ما لم تتناوله كتب التاريخ نفسها ومن هنا ، فان كتابة التاريخ في اطار منهجية قائمة على رؤية فاحصة لما يتصل بحياتنا عبر حقب التاريخ ، تستلزم جهد غير يسير من قبل المؤرخين والباحثين ، في تناول مختلف المواد التي تسهم في الكتابة التاريخية ، ومنها كتب الرحلات التي تكتسب بصرف النظر عن دوافع بعض اصحابها ، خصوصية تتناسب وقيمة ما تضمه من معلومات .

الفهرست

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة



وزارة الثقافة والاعلام
دار الشؤون الثقافية العامة

السعر دينار ونصف

الغلاف : رياض عبد الكريم



بغداد ـــ ١٩٩٠

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة